رواية

السرطان

نهاد سيريس

1

-أهلا وسهلا، يا مرحبا، أهلا وسهلا بك في بلدك.

قال رجل الجمارك الذي التقيته مرة أخرى في مراحيض المطار. ابتسمت له .ابتسم لي. غسلت يدي بالماء والصابون المعطر. المرآة تعكس صورتينا. أنا أنظر إلى خياله، وهو ينظر إلى خيالي. الرجل نظيف جدا. جعل يغسل يديه للمرة الثانية. المرة الأولى قبل التبول، والمرة الثانية بعده، وأنا أنظر إلى خياله في المرآة الصقيلة التي تظهر صورتي في أحسن حال. مرآة تجدها في أغلب مراحيض المطارات في العالم.

أنوار مبهرة ساعدت على توزعها بهذا الشكل المنتظم الجدران والسقف السيراميكي. حتى الأرضية كانت تضهج. نظيفة لامعة شهية. أين تستطيع أن تجد أرضية مراحيض نظيفة؟ في المطارات طبعا، في المطارات يا أخ. والأحواض، ما بها؟ بيضاء صقيلة، لامعة كأنها مرآة هي الأخرى، تنساب عليها المياه وكأنها زئبق، لو سقطت أسناني الصناعية في الحوض لرفعتها ودسستها في فمي دون أن أشعر بحاجة إلى غسلها.

أغلقت الصنبور النيكلي اللامع ذا القبضة الزجاجية المزخرفة، ثم فتحته من جديد. كأنك يا عبد الله قادم من القرية. قادم من أبعد قرية في وطنك، ولست قادما من بوينس آيرس، حيث الحضارة كما هي في مراحيض مطار الوطن، وكأنك تلمس هذه الأشياء للمرة الأولى!

-أهلا وسهلا بابن العرب!

تابع رجل الجمارك الذي كان قد اكتشف اسمي العربي من جواز السفر الذي أحمله، والذي قدمته له ليضع عليه ختمه ذا اللون الأحمر. كان يجفف يديه على آلة التجفيف. كان سعيدا بمرور الهواء الساخن خلال أصابعه. إنها لذة على كل حال، بينما كنت أغسل وجهي، بالصابون المفعم برائحة الصنوبر. لا أعرف لماذا تستهويني مراحيض المطارات، ولا أعرف لماذا أمكث فيها مدة أطول كلما سافرت.أظنني مصاب بمرض المراحيض، المراحيض الأنيقة، حيث تفوح رائحة عطرية خاصة، وحيث تعمل شرّاقات الهواء بقوة. جففت وجهي وسرحت شعري الشائب وخرجت لاحقا رجل الجمارك.

ماذا أكتب؟ يا لي من سخيف! مراحيض المطارات، وشرّاقات الهواء، والصابون ذو الرائحة الصنوبرية..!

ورغم أن هذه الأمور طبيعية، وأنا فعلا من هواة الجلوس في المراحيض بينما أدخن وأقرأ الروايات التاريخية، إلا أن هذه الأشياء لا تخطر ببالي إلا عندما أكون في حاجة ماسة إلى الجلوس، أي أنني لا أتجول في المراحيض فقط للنزهة.

في الماضي كنت أكره النهوض من على الكرسي، في بعض الأحيان يخاف المرء من أن تنزل أمعاؤه في النهاية. ولكن عندما شاب شعري وأصبحت في الخامسة والخمسين وأصبحت أمعائي تعمل بكسل، أصبح لزاما علي أن أجبر نفسي على الجلوس أكثر والاستماع إلى الموسيقى وقراءة المجلات المصورة على طريقة والت ديزني والكتب التاريخية التي تتحدث عن الحروب الصليبية في الشرق.

أنا في الستين، شيء هائل، جميل، مؤسف، عمري طال ستين سنة حتى الآن. أي سبعمائة وعشرين شهرا، أي عشرات الألوف من الأيام، أطحن طعامي بأسنان صناعية، نحيل، ذو وجه طويل، وجبهة عريضة لا تمنحني وسامة خارقة. شعر ناعم أبيض يشوبه سواد خفيف مسبل على الصدغين. لقد شاهدت نفسي منذ قليل في مرآة مراحيض المطار إيطالية الصنع. ها قد عدنا من جديد إلى المراحيض، وربما يا أيها القارئ، قد بدأت تشم رائحة غير طبيعية، ولكنني أذكرك أن مثل هذه الروائح لا توجد إلا في مرحاض بيتك، عذرا، فأنا لا أشتمك، فوظيفتي أن أتملقك وأدغدغك كي تصدقني وتقرأ كلامي إلى نهايته، لا أن تقذف بالكتاب بفقدان صبر وحقد عبر النافذة إلى الشارع.

نعود إلى ما كنا نقوله. إذن أنا في الستين. من مواليد 1926، عشية الأزمة الاقتصادية العالمية. في العام الذي ولدتني فيه أمي، أفلس أبي. وفي السنة التالية أفلست أمريكا. سمّوني عبد الله. أنا عبد الله. هذا غريب! كان عليهم أن يسمّوني باسم آخر له دلالات الإفلاس والندب والعويل. قال أبى حينها- هكذا قالت لي أمي بعدها- إنني كنت نحسا عليه وعلى تجارته، والحمد لله أن أمريكا لم يصل إليها كلامه ولم تقتنع به. ماذا كان سيحصل؟ عندما كبرت أصبحت الكوابيس تلاحقني. كنت أتكوبس (من الكوابيس) أن أمريكا رغبة منها في الحفاظ على مصالحها الحيوية وعلى اقتصادها الذي بدأ ينهار نتيجة ولادتي ومجيئي النحس إلى هذا العالم المتفائل والشريف، جاءت بأساطيلها لتختطفني ثم لتعلق مشنقتي في الجادة السابعة في نيويورك. في أحد هذه الكوابيس رأيت امرأة عجوز تصفق بحماس لإعدامي شنقا حتى الموت. أخرجت لها لساني، وعوضا عن أن تبصق في وجهي، بلعت ريقها ثم غمزت لي بعينها. المهم ...أنهم لم يعدموني، فأنا حي حتى الآن، وأصبح عمري ستين سنة.

سوف أتكلم قليلا عن هذا الحدث العظيم. يقال إن عمري ستون سنة. وإني أعيش الذكرى الستين لمولدي، أو يمكن القول: ستينية عبد الله المنحوس. كل ذلك له معنى واحد لا غير، وهو أنني قد عشت ستين سنة وأنني لن أعيش غيرها.

حسب علمي فقد مات فرانز شوبرت وهو في الحادي والثلاثين، موزارت لم يعش سوى ستة وثلاثين عاما. وبوشكين مات وهو في ريعان الشباب. وعاش الاسكندر المكدوني إحدى وثلاثين سنة فقط لا غير.

قبل قليل ذكرت ما يلي: "إنني قد عشت ستين سنة وأنني لن أعيش غيرها". ما معنى هذا الكلام؟ هل تريد أن أقول لك يا قارئي العزيز لماذا لن أعيش سوى ستين سنة؟ أي أنني سأموت هذه السنة؟ تعال معي إذن إلى صالة المطار، صالة الركاب، لأنني سأجلس على أحد المقاعد، وبجواري حقيبة سفري ذات العجلات، وحقيبة سامسونايت سوداء، فأنا أحب أيضا الجلوس قليلا في المطارات، في صالات الركاب، وفي مقاهيها. توجهت نحو مقعدي الجلدي الوثير حيث تركت حقيبتي بأمانة إحدى المسافرات الشابات اللواتي تراهن بكثرة في هذه الأيام، وقبل أن أجلس وأمتع نظري بعظمة المبنى وزخرفته الشرقية، صافحني رجل الجمارك وقال: سوف تكون سعيدا في وطنك أيها الأخ العربي. هنيئا لك بعودتك! احمر وجهي للمرة السابعة، كم هم لطفاء. رجل الجمارك هو الموظف الوحيد المكروه في كل الدنيا وكل المطارات. إنه في العادة ذو وجه جامد وقبيح، وإن ابتسم، فبسمته صفراء مليئة بالسخرية والحزم والرهبة. يراقبك بذكاء، قد ترتبك، فيعاود التفتيش. نسيت من قال لي إن رجال الجمارك يراقبون حنجرة المسافر. جوزة حلقه. فإن قام بابتلاع ريقه حين يسأل فالويل له. ولكن هذا الرجل لطيف. إنه من القلة الذين تقابلهم، ويتحلّون بأخلاق عالية. وبعد فليل أرسل إلي فنجانا من القهوة المركزة. ابتسمت المسافرة الشابة ولم تقل شيئا. حسبت أنني قد رشوت الموظف فكافأني بفنجان من القهوة. يا لها من شريرة هذه الشابة. رأتني كيف أدخل المراحيض، وكيف لحقني الموظف. حسبت أننا رشونا بعضنا بعضا في المراحيض. شربت القهوة. نسيت أن أدعوها لمشاركتي بارتشافها. اعتذرت لها، فقد كانت تراقبني بطرف عينها. بماذا تفكر؟ فتاة في الثامنة عشرة تراقب رجلا في الستين، نحيلا شائب الشعر أصفر الوجه.

سألتها بعربيتي المكسرة والمحطمة والعتيقة:

-هل تريد السنيوريتا أن تشرب قهوة؟

لم تفهم. أنا الغريب في هذا الوطن الرائع، أعدت سؤالي ثلاث مرات. فهمت أخيرا. ابتسمت فانتفخت الوجنتان وضاءت العينان الشهلاوان وهي تقول:

-شكرا شكرا لا أريد!

هززت رأسي كجد خبير ومحنك. بعد قليل علا صوت المكبر. قوقأت دجاجة المطار:

-كاك، كاك، كاك، المسافرون على آير فرانس إلى باريس وروما كذا وكذا أن يفعلوا.

نهضت الفتاة وكأن شيئا لسعها. هذه إذن طائرتها. آير فرانس. صافحتني بتهذيب شديد. قمت بدوري. قالت لي وكأني لم أفهم:

-هذه طائرتي. أنا مسافرة إلى باريس.

قلت وقد أصابني خجل عظيم:

-لماذا؟

تعجبت قسمات وجهها لسؤالي. كيف لماذا يا ملعون؟ إنها ببساطة مسافرة وهل تريد أن ترحل معك؟ ولكنها أجابت عن سؤالي بخبل أشد من خبلي إلا أنه كان أجمل:

-لقد خطبني دكتور طبيب يتخصص في باريس.

احمر وجهها، ربما كانت تريد الاحتفاظ بسرها لنفسها. ولكنني أخطأت، فقد استمتعت هي بسرد قصتها:

-لم نتزوج بعد. أرسل إلى والده وكالة عامة تخوّله كتب كتابه علي في المحكمة. وجدت نفسي أسألها ونحن واقفان:

-ولماذا لم يأت هو؟

-إنه مشغول جدا. لا وقت لديه. اختصاصه صعب ومربح.

-ولكنه جاء ليخطبك.

-كلا، فقد خطبتني والدته. عرضت علي صورته وشهادته وصورة عن جواز سفره، أعجبني شكله. وعندما وافقت أرسلت له صورتي. الأصح أنني أرسلت له ألبوم صور كامل.

قلت وعيناي في قحف رأسي:

-وهل أعجبته؟

أطرقت الشابة، إنها خجولة. ظهر جمالها أكثر من المعتاد. قالت وقد امتقع لونها خجلا:

-أرسل إلي رسالة يقول فيها إنه دهش لجمالي، وطلب شيئا آخر.

قلت بلهفة:

-وماذا طلب؟

-طلب شريط فيديو، فاستأجر والدي مصورة فيديو للأعراس، فجاءت إلى بيتنا مع عدتها وسحبت لي شريطا طوله مائة وثمانون دقيقة.

-يا إلهي... لقد أصبحت فعلا ممثلة سينمائية!.

بانت الأسنان اللؤلؤية مرة أخرى، رفعت كتفيها وذراعيها بحركة دالة. على بعد أمتار كان يقف رجل وامرأة وصبي. فهمت من الإشارات أنهم والداها وأخوها. جاءوا لوداعها. صافحتني مرة أخرى وهي ترقب لوحة الإقلاع. هاهي تدور لتكتب آير فرانس. هيا إذن! إنه ينتظرها في مطار شارل ديغول. هل سيتعرف عليها وتتعرف عليه؟. ربما طلب من الدجاجة هناك أن تذيع ما يلي :فلانة الفلانية إلى مكتب الطيران الفلاني. وهناك سيتقدم إليها بخجل ليسألها ألست أنت؟، فتحمر وتتعرق وتنفخ: ألست أنت. يا له من امتحان. هل سيعجبها؟ هل ستعجبه؟. تمنيت لهما التوفيق. سارت باتجاه أهلها وهي تخطو كراقصة باليه متفوقة من الدرجة الأولى في مسرح البولشوي.

جلست ورحت أراقبها وهي تهرع مع أبيها لتنظيم أمور السفر والجوازات والجمارك. بعد قليل كان فستانها قد تشرب رطلا كاملا من العرق. عروس حديثة، عروس معبأة للتصدير.

ما علاقتي بهذه الأمور؟ لقد امتقع لوني ورحت أشتهي تدخين سيجارة. الأطباء منعوني، لعنة الله عليهم. أخبروني في المستشفى الملكي أنني مريض. أنت مريض يا عبد الله. يا عبد الله أنت مريض. استنتجوا ذلك من التحاليل الكثيرة التي أجروها علي. وكأنني فأر تجارب، أخذوا مني سنتيمات عديدة من الدماء، حتى أصبحت يداي كالمصفاة، وأخيرا وضعوا النتائج في الكومب ثم ضغط الموظف زرا أصفر اللون مثل لون بشرتي، فإذ باسم المرض يكتب على شاشة زرقاء اللون. ماذا كتب الكومب هذا؟

أعوذ بالله من هذه الذكريات. إني أرفض التذكر، فأنا أشعر بهبّة ساخنة تجتاح رأسي وجسدي كله. كيف تخونني قواي الآن، لماذا أرهق نفسي؟ علي أن أنفذ تعليمات الأطباء والكومب وكفى. قالوا لي إنه يجب علي أن أجتاز دورة تثقيفية، مدتها هي المدة الباقية من حياتي. ولماذا هذه الدورة؟ ماذا بقي علي أن أعرفه قبل أن تخرج روحي من جسدي؟ تصوروا هذا وتمتعوا!. نعم، أنتم تتمتعون الآن بما أكتب، بينما ذلك الوحش الذي اسمه سرطان الدم ينهي مستقبلي في أشهر معدودات. يحرق دين هذه الصنعة، فسرطان الدم لم يجد غيري ليلعب لعبته معه.

إذن، الكومب اكتشف المرض. حالة تكنولوجية. موت تكنولوجي. والآنسة سحبت فيلما بمائة وثمانين دقيقة. ثم أرسلت الفيلم إلى فرنسا على إحدى طائرات الآير فرانس، ليشاهدها الخطيب الأصيل بعد أن شاهدها الخطيب الوكيل، بعد أن تفحصتها أم الخطيب وأبو الخطيب. ماذا كنت أقول؟ نعم... أطباء وكومبيوتر المستشفى الملكي في بوينس آيرس اكتشفوا المرض الذي سيجعلني أموت في الستين. وبعد أن تمالكت أعصابي سألت إن كان جهازهم يستطيع أن يحدد موعد تسليم الأمانة. ضرب ابن الكلب بأصابعه العشرة وكأنه يضرب على الآلة الكاتبة ثم تطلع إلي بحنو وكأنه يريد رفع معنوياتي.

أعاد ضغط الزر الأصفر ثم قرأ ما كتب على الشاشة:

-مائة يوم يا سنيور!

مائة يوم. مائة إصبع وسطى. مائة خازوق منجر من خشب صلد. عد يا عبد الله ..97 -98 -99 ! لعنة الله على مخترع الأرقام، وكأنني مكوك فضاء سينطلق بعد أن ينتهي العد التنازلي، 96...

ترم.. ترم.. إذاعة المطار، الدجاجة تقوقئ من جديد:

-كاك.. كاك.. كاك. الرحلة رقم 96 ستتم في موعدها المحدد شكرا. باضت أخيرا. الرقم 96 والموعد المحدد.. و ..

أنا لا أستطيع أن أفهم سر مذيعات المطارات (عفوا ولكن علي أن أحدد موقفي بوضوح منهن) وكأن كل الحكومات في العالم أجمع، تصر على مواصفات معينة حين يتم تعيينهن. صوت رفيع ودم بارد، هذه هي المواصفات، يقلبون الدنيا رأسا على عقب بحثا عمن لها تلك الإمكانيات، لا لشيء إلا لكي يثيروا أعصابي.

لقد قررت أن أنتظر موعد الغداء لأتناوله في المطار ومن ثم أرحل. إلا أن بعض الأشياء تجعل مكوثي هنا مستحيلا، ثم علي أن أفكر، وكيف يمكن أن أفكر بهدوء؟ قولوا لي كيف! اتخذت قراري، لن أفكر.. وليحصل ما يحصل! التقطت حقيبة السامسونايت. أدرت الأرقام حتى أصبحت تشير إلى رقمي النحس .(0100) .هذا هو الرقم السري الذي تنفتح عنده الحقيبة، وهذا هو الرقم الذي ستنفتح الأرض عنده وتبتلعني. أخرجت كروز السجائر الأمريكية وفتحته. أخذت منه علبة ثم أعدته. أغلقت الحقيبة ثم أدرت الأرقام من جديد على رقم آخر.أعدت الحقيبة إلى مكانها على المقعد الجلدي واستنتجت أن المقعد مستورد .نصدر الزوجات ونستورد المقاعد. أخرجت سيجارة ووضعتها بحنق في فمي. لقد قررت أن أعود إلى التدخين. ما فائدة نصائح الأطباء؟ عليك أن تتوقف عن التدخين يا سنيور، جسدك يحتاج إلى الراحة، إن أنت أقلعت عن السجائر، ستعيش مائة يوم ويوم. أي يوما زائدا. سأشعل السيجارة وسأهدي هذا اليوم لموظف الكومب.

ظللت خمس دقائق أبحث عن كبريت، فرصة ذهبية كي لا أتذكر ولا أفكر. ورغم ذلك مرقت في ذهني الفتاة التي زوجت بالفيديو. كم كانت سعيدة، لم تكن خائفة، وهذا ما حيرني فعلا. في أي بوز صوروا الفتاة؟ بوز واحد لمدة مائة وثمانين دقيقة؟ هذا لا يمكن. بل إنها صورت وهي تأكل وتشرب وهي تمشي وهي تغني، وهي تنشد الشعر (هذا مستحيل) صوروها وهي تجلي الصحون، وهي تمسح الأرض ثم وهي نائمة. بدلت فساتين عديدة، سرحت شعرها بأشكال مختلفة. صوروها وجهيا ثم صوروا جانبيا وأخيرا وهي ترسل قبلة هوائية. هأ.. هأ.. هأ.. إلا أنهم لم يصوروها والعرق يزخ من

جسدها فيتشربه فستانها حتى البلل. ما لك ولها يا عبد الله؟ اتركها لعنة الله عليك! يا لك من منحوس. أنا لا أسخر من الفتاة، كما أرجو أن أفهم على أنني لست ضد الزواج، فأنا من أكثر المشجعين على الزواج، حتى أنني تزوجت ثلاث مرات، وهذا ليس بشيء شاذ. طلقت مرتين وترملت مرة واحدة. المجموع ثلاث، وحينما ماتت زوجتي الأخيرة (وكان ذلك قبل عشر سنوات) أقلعت عن هذه العادة، رغم أنني كما قلت من مشجعي التزاوج والتراحم والتقارب. والإقلاع عن الزواج وأنت في الخمسين فكرة هائلة جدا، وقد جربتها، فقد عرضت علي إحدى الأرامل أن نتزوج. في بوينس آيرس تستطيع أن تجد الكثيرات منهن. أرامل ذقن طعم السرير، سرير الزوجية وغير الزوجية. الزوج الشرعي وغير الشرعي. وبما أنني قد قررت فقد رفضت (أنا حر طبعا) المرأة تريد تأمين مستقبلها، هذا من حقها، ولكن أن تعرض عليك امرأة الزواج وأن ترفض فهذا شيء هائل. أنا فعلتها، أرجوكم ألاّ تحسدوني. ومن ذاك الذي سيحسدني لأن أرملة عرضت علي الزواج رغم أنني كنت أبطحها على سريري ثلاث مرات في الأسبوع؟ (على فكرة، كانت المرأة تملك رصيدا بمبلغ مليون دولار، والآن، بعد أن عرفتم ذلك هل ستحسدونني أم تسمونني حمارا .(!

السيجارة الأولى جعلتني أشعر بدوار خفيف. أخرجت الثانية وأشعلتها من عقب الأولى، وأنا أرقب لوحة الإقلاع والهبوط. كانت الشرائح المعدنية السوداء تدور على نفسها بالتناوب، ثم تظهر الكلمات والمواعيد والأرقام. شيء جميل أليس كذلك؟ كيف يصنعون هذه الأشياء؟ سويسرا بلد العجائب. صنعت في سويسرا)أوميغا). كيف يعرضون منتجاتهم هذه في الدكاكين؟ كيف وصلت هذه اللوحة إلى مطارنا؟ ألا يمكن أن يصنعوا لوحة تناسب الزخرفة الشرقية لمطاراتنا؟

على كل، كنت أرقب الناس، وأنا أدخن السيجارة الثانية. لقد طلقت نهائيا نصائح الأطباء، وها هي السيجارة الثانية تبدو شهية جدا، حتى أنني بت أشتهي كأسا من النبيذ. ولكن علي أن أعرف حدودي. الخمرة ممنوعة بتاتا. الأدوية التي أستعملها والتي أفردت مكانا واسعا لها في حقيبتي لا يمكن تناولها مع الخمرة، وإلا انتهيت قبل المائة يوم المعهودة. وماذا في ذلك؟.. مائة أو خمسين أو حتى عشرين... لا فرق. إن هذه الأرقام أمست متشابهة في ذهني، ..كلا، فأنا أحتاج إلى الأيام الباقيات، ولماذا عدت إلى الوطن إذن؟ ولماذا رفضت المكوث في المستشفى الملكي الذي يديره السنيور كومب؟ قالوا لي يا سنيور عبد الله، سوف نعطيك جناحا جيدا يشرف على حديقة المستشفى. حديقة ممتلئة بأشجار ونباتات وزهور خط الاستواء. أمريكا اللاتينية رائعة بهذه النباتات، لها أشكال غير عادية كرسومات السورياليين .قالوا لي: يا سنيور عبد الله، إن جناح السرطانات عندنا لا مثيل له في كل أمريكا اللاتينية، هنا يموت المريض بهدوء وانشراح، ولكي يموت كذلك عليه أن يتمتع بنفسية معينة نؤمنها له من خلال دورات تثقيفية نوعية تجعل المريض يستقبل الموت بفرح وسرور. دورات تثقيفية كاثوليكية ومورفينية. دورات بإشراف كومبيوتر عصري جدا. هذا غير الجناح المجهز بأحدث التقنيات الحديثة للتسلية بحيث ينسى المريض مرضه، حتى أنك تستطيع (يا سنيور عبد الله) أن تلعب مع الكومب جميع الألعاب من كرة القدم إلى حرب النجوم الألكترونية .

-ولكنني رفضت !

-ولماذا رفضت؟

-وهل سأقول لك كل شيء؟ يا لك من لجوج متطفل، ثرثار، حقير... عفوا.. عفوا .اعتذرت للرجل الذي كان يحمل ثلاث حقائب دفعة واحدة. حسب أنني أشتمه .ولماذا أشتم رجلا أصلع؟.. يبدو لي أنني أكلم نفسي بصوت عال. حدث ذلك معي أول مرة حينما حددوا لي المائة يوم. لا أعرف لماذا يحدث معي ذلك. كنت في الماضي أحسب الذين يتكلمون مع أنفسهم بصوت عال، ويشتمونها أيضا، إنهم مجانين، ولكنني الآن تأكدت مائة بالمائة أنهم ليسوا كذلك، فأنا مثلا لم أجن بعد، ومع ذلك أكلم نفسي. هذا شيء طبيعي. إلا أنك يا عبد الله، من المستحسن أن تتكلم بهدوء وألا تشتم نفسك، فقد تقع في مشكل مع أحد المارة فيجعك رأسك. قلت لهم أنا لست كاثوليكيا، فقالوا لي إن الله هو رب جميع المؤمنين، فقلت لهم هذا صحيح، ولا أحتاج إلى السنيور كومب العزيز ليفهمني ذلك. فقالوا أنت رجل بسيط يا سنيور، إن دوراتنا وصلت إلى مرحلة عالية من الجودة بحيث تجعلك تكره الحياة، وتكره الدنيا في ثلاثين يوما، إنها تجعلك تتمنى الموت فورا. فقلت لهم وكيف ذلك قالوا:

-سنجعلك تطلع على نتائج أي حرب نووية، وسنجعلك ترى بأم عينك المجاعات في إفريقيا والجرائم في نيويورك وحروب السيخ والهندوس في الهند وحرب السلفادور والهندوراس من أجل لعبة كرة القدم. سنقدم لك إحصائيات أكيدة عما يلي: حرب لبنان، وعن عدد الفلسطينيين الذين أبيدوا وعن نتائج حرب البيافرا في نيجيريا، عن عدد اليساريين الذين أعدموا في إندونيسيا والتشيلي.. عن ..عن.. عن... وأخيرا عن خطط السي آي إي في العالم ...

رفضت حينها بشدة. رفضت رغم أن ضغطي ارتفع وتورد وجهي على غير عادته منذ بداية مرضي وحتى الآن . رفضت أيضا لسبب آخر، غير السبب الأول الذي لم أقله بعد. كانوا سيسجنونني في غرفة بيضاء ليحقنوني بمستحضرات اليود المشع التي وإن أخرت الأجل قليلا إلا أنها تشوه الجسد وتسقط الشعر. لا... لم أوافق ولذلك رفضت. أطفأت السيجارة الثانية دون أن أشعل الثالثة. الآن علي أن أطلب شعلة من أحدهم فالتدخين يسليني. يجعلني أكثر انسجاما مع جو المطار. أخرجتها ووضعتها بين شفتي وجعلت أنتظر ابن الحلال الذي يمتلك كبريتا ويبدو عليه ذلك

عادت إذاعة المطار للبث. اير فرانس أقلعت، السويسرية تنتظر، السورية إلى قبرص في الثانية عشرة، كل الطائرات لها أسماء ولها جهات. وكل الطائرات تدعو المسافرين للتأهب أو للانتظار، وقد وظفت تلك الدجاجة لتقوم بالإبلاغ. كل هذه الآلات المعقدة والعظيمة يسيرها صوت رفيع تكاد صاحبته أن تبيض.

والناس يتحركون كالنمل. لو قدر لك أن ترى إليهم من عل لعرفت أن النمل يتحرك بطريقة أكثر تنظيما. منهم من يذهب إلى المراحيض (حيث كنت أنا من ساعة وتمتعت بالجو المعطر) ومنهم إلى الجوازات، وآخرون يبحثون عن آخرين. بعضهم يبكي وبعضهم يكاد يطير فرحا، ولكن الباكين هم الكثرة أما الضاحكون فهم قلة. لا أعرف لماذا، ربما لأنني صنفت المرتعبين وذوي الوجوه المصفرة مع الباكين. ولكن السمة المشتركة بين جميع الموجودين في المطار هي الأناقة وحمل أو جر الحقائب. والحقائب بأنواعها متعة للنظر والتصنيف. الآن عرفت لم أحببت الجلوس في قاعة الركاب، فالحقائب المتنوعة تجعل الصالة بهيجة. حقائب سود وبيض وزرق وخضر وصفر... رقيقة وسمينة، صلبة ولينة، محمولة بالأيدي أو على الأكتاف، أو مجرورة إذا كانت من آخر صيحة ولها دواليب صغيرة في طرفها الخلفي وجلدة قصيرة في طرفها الأمامي كي تجر بها، تماما كحمار صغير.

دون متاع لا يتم السفر، أنا مثلا أحمل حقيبة كبيرة للألبسة والهدايا وحقيبة صغيرة لأشيائي الخاصة. حملي خفيف، ولكن الآخرين يكادون ينفتقون من الأحمال. لماذا كل هذا، إلى أين هم مسافرون؟ ربما إلى القمر، وربما إنهم مهاجرون ولن يعودوا فقرروا حمل كل شيء. ثم هناك مسجلات الكاسيت، أغلب المسافرين يحملون مسجلات كاسيت يابانية الصنع. ستيريو، برأس واحد أو رأسين، بألوان مختلفة وزاهية يحملونها كأنها المتاع الأخير، يتصارعون من أجلها مع رجال الجمارك، ماذا؟... هل افتتحت سوني فرعا في الوطن لتصنيعها؟

وجدت طريقة لإشعال سيجارتي الثالثة. هناك رجل يجلس قبالتي ينظر إلي باستمرار ويبتسم في بعض الأحيان. أخرج قداحة وأشعل لنفسه سيجارة. نهضت وذهبت إليه، مقعده يبعد عن مقعدي عشرة أمتار لا غير. طلبت منه بأدب أن يشعل لي سيجارتي. فعل الرجل بقداحته الذهبية موديل ديبون 84. شكرته. قلت له شكرا يا سنيور، فقال عفوا يا سيد، ثم عدت إلى مكاني.

قررت أن أحمل حقيبتي وأنطلق إلى المطعم. لقد بدأ الجوع يدب في معدتي فجأة. هكذا أنا... أجوع فجأة وأشبع فجأة أيضا. في الماضي كانت أمي تعيّرني بذلك. كانت تقول إنني أملك معدة عجيبة. أكون جالسا بهدوء أستمع للراديو، وفجأة، أحس بالجوع. أنا جائع يا والدتي فتقول حسنا انتظر حتى أفرغ من عملي. أرفض الانتظار. أنا جائع يا أمي، جائع جدا، فتترك عملها وهي تشتمني...

وكذلك كنت مع زوجاتي، خصوصا مع تلك التي ارتحمت. كانت تشتكي دائما من أنني أرعبها عندما أقول لها يا ماريتا أنا جائع. أكون قد صمت ساعات وإذ بي أطلق إنذاري بأنني جائع. المرأة تنتفض. ماريتا امرأة رقيقة تخاف من خيالها. ماريتا أنا جائع، فترتجف وتنتفض وتضع يدها على صدرها وتقول أخفتني يا عبد الله. ربما ماتت من الرعب. من يعلم؟...

كنت سهران أقرأ في صالون بيتي في الطابق الخامس عشر من إحدى بنايات بوينس آيرس. البيوت العالية هادئة أكثر من الواطئة ولهذا السبب استأجرت شقتي في الطابق الخامس عشر، ثم إن الغبار لا يصعد إلى الأعلى إلا حين تهب الزوابع الشديدة، ولكن... في هذا العصر لا يوجد مكان بعيد عن الضجيج. أصوات السيارات وزعيق أبواقها لا تصل إلى الطابق الخامس عشر، أما هدير الطائرات فيسمع وكأن المحرك متوضع في المطبخ. هذه هي مشكلتي التي أرقتني كثيرا، ولذلك، انتقيت مبنى بعيدا عن المطار وبيتا في الطابق الخامس عشر.

ماذا كنت أقول؟... نعم، كنت سهران أقرأ في الصالون. وكانت زوجتي جالسة تنسخ بعض أعمالها التي أتت بها من المكتب لتنهيها في البيت، فمديرها رذيل ويهددها بالطرد. صحت... ماريتا أنا جائع، ثم تابعت القراءة. كنت أقرأ رواية "بيدرو بارامو" للمرة الثالثة، فهي جميلة جدا ومعقدة جدا. كيف يمكن لرجل ليس له علاقة بالأدب أن يكتب رواية وحيدة ثم يقلع عن التأليف؟ هذه الرواية ليست بعادية، مازالت حتى الآن حديث الناس والنقاد. (ولهذا السبب أعدت قراءتها ثلاث مرات)، كنت قد وصلت إلى، حيث يضاجع الأخ أخته، فلم أنتبه إلى أن ماريتا لم تنهض ولم تجبني بنعم أو لا. كانت ماريتا ميتة حينما التفت إليها.

– هذا هو... هذا هو... الحمد لله أننا وجدناك.

كان رجل الجمارك مع أحد رجال الأمن. وضعت الحقيبة في حضني وعدت إلى الجلوس. جلسا إلى جانبي. ماذا حدث هل يوجد خطأ لا سمح الله؟. كلا، نريد بعض الاستفسارات فالاستمارة التي كتبتها غير مفهومة، تفضل أنا جاهز للإجابة يا سنيور بوليسيا.

– اسمك عبد الله مشحوَر أليس كذلك؟...

– نعم...

– ابن عبد النبي مشحوَر ومريم وهما متوفيان؟...

– نعم.

كتب رجل الأمن متوفيان بقلمه الأحمر على الاستمارة ثم تابع قراءته للتأكد.

– مواليد عام 926 1– 25 كانون الثاني؟ وتعمل مهندسا للنسيج؟

– نعم، فأنا من برج الدلو، حظي سيئ دائما.

لم يفهما ذلك، فقد قلته بالإسبانية، فابتسما بلطف ثم تابع رجل الأمن:

– ولك أختان، هدى ولطيفة، أكبر منك أم أصغر؟...

– أكبر مني، لطيفة ماتت منذ سنتين أما هدى فهي تعيش مع زوجها وأولادها في كندا.

سجل ذلك بأمانة ثم عاد يسأل:

– أنت أرمل، أليس كذلك؟

– نعم!.

– لا يوجد أولاد؟

– لا يوجد.

– هاجرت إلى الأرجنتين مع أسرتك عام 1940 أليس كذلك؟

– نعم يا سنيور.

– عنوانك هناك..

– شارع فرانسيسكو غويا رقم 126؟ الشقة 153.

أعدت العنوان مرتين كي يستطيع كتابته. لم أقل له إن شقتي تقع في الطابق الخامس عشر. قال وهو يبحث بجهد عن الكلمات:

– لقد كتبت في بند أسباب الزيارة للوطن أنك تنوي العودة من أجل الموت.

– نعم، بالتأكيد.

– ماذا يعني هذا الكلام؟ إنه غير مفهوم!.

بماذا أجيب؟ لماذا كتبت ذلك صراحة يا عبد الله؟ لعنة الله عليك كم أنت متفلسف. أخرجت علبة السجائر الأميركية فالتقط كل منا واحدة. كسبت وقتا إضافيا، بين توزيع السجائر وإشعالها. تفضل أنت أولاً، لا والله أنت الأول... وهكذا، وأنا أفكر بماذا أجيب...

هل أقول لهما إنني مريض وإنني سأموت بعد حوالي ثلاثة أشهر وإنني رفضت الاستلقاء في المستشفى الملكي في جناح أمراض السرطان كي أموت هناك ميتة تكنولوجية؟. هل أقول لهما إنني أكره السنيور كومب وحرب النجوم وكرة القدم وجرعات المورفين والفيديو والتلفزيون والعمارات الشاهقة والشوارع العريضة المزينة بألوف السيارات الفارهة؟. أم أقول لهما إنني أكره الوحدة والتغريب والشعور بأنني لا قيمة لي بعد أن مرضت وأصبحت عالة على المجتمع الديناميكي المتحرك كالقطارات السريعة التي تنطلق بدقة الثانية وتصل بدقة الثالثة؟

أنا أكره العيش في مجتمع متحضر أحس فيه بالوحدة، ورغم أني عشت فيه خمسة وأربعين عاما إلا أنني أكرهه، وهذا من حقي، كنت أعيش من غير جذور، كنت أرى إلى قائمة المنتحرين في الزاوية الداخلية للجريدة وأنا أرتعش خيفة أن يحدث معي ذلك. وعندما مرضت وأخبرني الموظف المسؤول عن السنيوركومب أن رحيلي عن هذا العالم الفظيع إلى عالم فظيع آخر بقي له مائة يوم خفت كثيرا. (طبعا... هذا الكلام لم أفكر فيه حينما كنت أفكر كيف أجيب عن سؤال رجل الأمن. هذه الأشياء لا تعنيه أبدا. لا يستطيع كتابتها في الإضبارة. ماذا، هل سيكتب مقالا أم ماذا؟ كما أكتب أنا الآن دون رحمة بالقراء).

أقول خفت كثيرا حينما تم تحديد يوم تخريجي، وكيف لا أخاف؟ من ينصحني ألا أخاف؟ أي ابن زانية؟... عليك أن تعيش مائة يوم دون إحساس ودون أن تكون إنسانا، بل كحيوان يؤكل وعليه أن يذبح. حيوان متمدن واقع تحت تأثير المورفين. ما أن يروك تبكي حتى يهرعوا وفي أيديهم إبر المخدر، وما أن يروك تفلسف حياتك التي عشتها وتستنتج أن كل شيء كان هراء، وأن عليك أن تقول ما لم تستطع قوله في الماضي وأن عليك أن تفعل ما لم يمكنك النظام ذو الهراوة أن تفعله حتى يهرعوا إليك وكأنك مجرم ستنتهي حياتهم وليس حياتك أنت.

اللعنة كم أنا قوي! كيف أرفض المورفين والنسيان وتبلد الشعور وآتي إلى هنا لأبرر لرجل أمن ولرجل جمارك عودتي إلى الوطن؟

حين يعلم الإنسان أنه زائل بعد مائة يوم يروح يتذكر ويتحسر، وأنا أريد أن أتذكر وألا أتحسر. هذه هي رغبتي الصغيرة. كم هو جميل أن أعيش طفولتي من جديد، في الحارات والأزقة، في الليالي المقمرة. كنت في الخامسة عشرة حين تركنا البلد ورحلنا إلى الأرجنتين. كنا هنا سعيدين ولكن المال كان ينقصنا، فأصبحنا أغنياء ولكن دون سعادة. معادلة لها طرفان لا يجتمعان!.

كنت أقول إن الإنسان قبل أن يموت يتذكر اللحظات السعيدة. يستذكر تلك الأيام والأشخاص والأمكنة والعليّات التي قضى فيها ومعها أيامه الجميلة. يستذكر فناجين القهوة وأغاني الأطفال وأغاني الكبار وحنو الجدة وحكاياتها. هذا ما حصل لي بالضبط ولذلك عدت لأموت في المكان الحميم ومع الناس الحميمين. أريد أن أموت وأنا أرى الحب والأخوة والشجاعة والرهبة والقسوة والجماعة. أنا بصراحة (يا شباب) لا أريد أن أموت وأحرق في محرقة بلدية بوينس آيرس بل أريد أن أدفن في هذه الأرض ويخرج في جنازتي مئات الناس يسيرون حاملين على أكتافهم نعشي، ويطلقون الأدعية الصادقة ويذرفون دمعات رقيقات ثم يزرعون على قبري عروق الريحان، دائمة الخضرة ويشربون عرق السوس بتلذذ.

كيف سأقول ذلك لهذا الأخ الكريم رجل الأمن؟. لأحاول!.

– اسمع أيها الصديق. لقد أصبحت في الستين، والإنسان، بعد عمر طويل يموت. هذا شيء أكيد. صحيح أنني عشت في رفاه، ولكن عندما أصبحت في الستين وجدت أنني سأموت قريبا، وأن الرفاه لن يفيدني في شيء. كيف يمكن أن أموت في بلد غريب وأدفن في أرض غريبة. أرجوكما قولا لي!. هل هذا يجوز؟... ولذلك فقد عدت، ولن أخرج من هنا أبدا، حتى الممات. أليس هذا مطابقا لما كتبت؟.

– نعم... مطابق تماما...

قالا معا. ثم قال رجل الأمن بمفرده:

– إن هذا لشعور وطني رائع... إني أرى فيك مناضلا وطنيا عالي الهمة. لم تعد إلى الوطن لتسرح وتمرح وتربح بل جئت لتموت، أي أنك جئت لتموت في سبيله. إننا نناضل ضد الاستعمار والصهيونية. انظر المقاومة!... في فلسطين وفي لبنان!. إنهم يموتون دون حساب، كل ذلك في سبيل الوطن وحريته. يلعن دين الاستعمار. سوف نمرغ وجهه في التراب، أنت تستمع إلى الأخبار بشكل جيد، الإذاعة تقول كل شيء. يهددون بلاد العرب. يريدونهم أن يركعوا، ولكنهم لن يركعوا، بل سيخرجون لهم ألسنتهم، هذا من حقهم. وقد أصبح لدينا أعداد كبيرة من الشهداء... والشهيد محترم في هذا الوطن أكثر حتى من الأحياء.

نهض رجل الأمن وصافحني بقوة. عانقني ثم فعل موظف الجمارك الشيء نفسه. ربتا على كتفي والدموع تتجمع في مآقيهما. ودّعاني وانصرفا، أما أنا فقد حملت حقيبتي ومشيت إلى المطعم. كيف لم يخطر ببالي ذلك من قبل. ها قد أصبحت لدي فلسفة كاملة للموت. طلبت وجبتي وفتحت حقيبتي وأخرجت دفتر مذكراتي وكتبت:

" في هذا العالم يوجد نوعان من الموت. النوع الأول هو الموت التكنولوجي. وهو باختصار، الموت في شقة مقفلة أمام جهاز التلفزيون دون صديق أو قريب يكتشف الجثة فتتفسخ وتنتشر رائحتها فيهرع رجال المطافئ وعمال دفن الموتى لا ليكرموا الميت بل لإنقاذ الحي والعمارة من رائحة التفسخ والنتن، أو الموت في الشارع بالسكتة القلبية أو التلوث بسبب تسرب الإشعاع النووي وتناول الفروج الكيميائي. أو الموت قتلا بالخطأ أثناء السطو على بنك، إنه الموت من ضجيج السيارات والطائرات.

أما الموت الآخر فهو الموت الشرقي. الموت في الوطن. هنا يموت الإنسان وإلى جانبه شخص واحد على الأقل يمسك بيده ويذرف له الدموع. صحيح أنه بسبب الأمراض السارية وسوء التغذية، إلا أن للموت نكهة خاصة في الشرق. (ويمكن أن نقول رائعة...)

هنا يحملون الميّت على الأكتاف. يبكون، يولولون ويندبون، يصفعون أنفسهم ويمزقون ثيابهم. يدفن الميت بمراسم طويلة، ثم توزع الحلويات وعرق السوس (فتح الفم). خلال يومين يستقبلون ويودعون مئات الناس الذين جاؤوا للتعزية، ويهمسون في آذان القلة المقربة كي يأتوا في اليوم الثالث. فيه ستقام وليمة هائلة للترحم على الميت ومجازاة الناس الذين تعبوا وعرقوا في توديعه. هنا إذن يموت الإنسان وهو يبتسم. الشرق العظيم يبكي أثناء الولادة ويبتسم أثناء الموت. يركب الشرقي سيارة مفخخة ويطير بها نحو مبنى يحتوي على المئات من الرجال الأعداء وهو يبتسم. يحمل الشرقي على ظهره مائة كيلوغرام من القنابل ويفجرها أمام قافلة إسرائيلية تحتل الأرض. الشرقي يحرق نفسه حتى الموت (في فيتنام) استنكارا للوجود الأميركي. يا له من شرق عظيم: هنا سأموت، أنا السنيور عبد الله...!.

– لو كان باستطاعتي لتكلمت كثيرا حول هذا الموضوع، خصوصا وأنني أعرف كيف يعاملون الميت في كل بلد من بلاد العالم...

– قل إذن، قل إذن! مادمت تعرف فلم لا تقول، هذا شيء مهم...

– لن أتكلم في هذا الموضوع مرة أخرى، لقد مللت. والله العظيم مللت. اتركني يا شيخ!.

– بل عليك أن تتكلم، يجب أن نعرف كل شيء، لماذا يجوّع الايرلندي نفسه حتى الموت وهو ليس شرقيا؟ قل لي... بوبي ساندرز... قل لي!.

– إنه واضح لن أتكلم...

– بل ستتكلم... سحقا لك من متفلسف !.

– سحقا لك أنت، عليك اللعنة، اتركني، الآن أريد أن أرتاح. يجب أن أموت وذهني صاف ينساب كماء النهر. اتركني في حالي أرجوك!.

– أنت جبان حقير... أنت تهرب مني!.

– بل أنت الجبان... اسمع... أنت تهينني، عليك اللعنة!. لن أسكت على إهانتك بعد الآن بل سأرد لك الصاع صاعين...

– عليك اللعنة...

– يحرق دين...

قال أحد الأشخاص:

– ماذا حدث له. كان يبربر بلغة غريبة وبالعربية أيضا. هاتوا يا ناس كأسا من الماء. هل عندكم ماء زهر؟...

– افركوا رأسه... أفسحوا له مجالا كي يتنفس... انظروا كيف يبحلق فينا...

– دعوه يستلقي. جن الرجل ولي على قلبي...

– إنه مجنون، أنا متأكد جدا...

– منذ متى يأتي المجانين الأجانب للسياحة في بلدنا؟ ألا يكفي مجاذيبنا؟.

– أنا دكتور. هل تريدون أية مساعدة؟

– لقد فقد الرجل عقله، حدث له انهيار عصبي.

– إذن هذا ليس من اختصاصي، السلام عليكم!.

– بر... بر... مر... كر... شمس... لغون...

– هم هم هم هم غم غم غم غم غم......

لا أعرف... ربما فقدت وعيي، فجاؤوا بالإسعاف السريع فنقلوني إلى المستشفى... فوضعوني في حجرة " العناية الخاصة " فوجدت نفسي بعد يومين في غرفة بيضاء لها نافذة تطل على سوق للخضار.

قلت لأميرة وأنا أودعها إنني لن أنساها. بكت أميرة، سالت الدموع من عينيها السوداوين وسال مخاطها. أكدت لي وهي تشهق أنني سأنساها فور وصولنا إلى هناك. كذبت أميرة. فأنا لم أنسها فور رسوّ الباخرة في الميناء الغريب الذي يضج بأصوات البواخر وزعيق النوارس كما زعمت هي، ولا بعد سنوات طوال طوال. والدي الكريم هو الذي قرر وخطط للسفر. والدتي لم تخطط، فلم تكن قد تعلمت التخطيط بعد، بل رضخت وزفرت وتمتمت: اللي تشوفه يا عبد النبي يكون خير!.

كان والدي يملك مشغلا يحتوى على أربعة أو خمسة أو ستة أنوال يدوية. ماشي الحال والله ساترها. وفي عام 1926 (بعد دخول الفرنسيين بست سنوات) أي عام مولدي، بدأ والدي يحس بالكساد فيقول الله يستر يا مريم، فتقول له بعد كل شدة فرج إن شاء الله يا عبد النبي...

ولم تنته الشدة في عام 1930 إلا وكان أبي قد باع المشغل بأنواله اليدوية وأصبح عاملا على أحدها في المشغل نفسه. تحطم أبي ماديا ولكنه لم يتحطم معنويا.. همس في إحدى الليالي غير المقمرة، في أذن أمي وهو يدخن سيجارته بعد أن عمل عملته قائلا: هذا الولد جاء نحسا علينا. الله يستر!. زعلت أمي في بادئ الأمر، إلا أنه كان شديد الإقناع، ومنذ تلك الليلة التي قذف خلالها كل قهره الصناعي في رحم أمي، أصبح اسمي عبد الله النحس أو عبد الله المنحوس أو عبد الله قز القرد. وخلال عشر سنين استطاع أن يعمل بنشاط في المشغل الذي أصبح لا يملك فيه فردة حذاء، وأن يعيّشنا مثل العالم والناس. كان يستيقظ في الخامسة والنصف صباحا قبيل انطلاق بوق العمل الأول الذي كانت المعامل الكبيرة تستخدمه لإيقاظ العمال، وإنذارهم بالطرد إن لم يسحبوا أنفسهم من فراش زوجاتهم، وعندما أسمع البوق الثاني يكون أبي قد احتل مكانه خلف نوله وجعل يحرك كل أعضائه وأطرافه إلى اليمين واليسار، إلى الأسفل وإلى الأعلى. حركة لا تهدأ اثنتي عشرة ساعة كاملة. وما إن كبرت حتى صرت أحمل طعام الغداء إلى والدي في المشغل. في أواخر الثلاثينات، تعرف والدي على حزب سياسي كان قد أصدر بيانه الأول عام 1931 معلنا فيه موقفه من السلطة الفرنسية ومن الأغنياء المتعاونين معها من جهة ومن العمال والفلاحين والفقراء من جهة أخرى، وانخرط في العمل السياسي. أما أنا فقد تعرفت إلى أميرة ابنة الجيران وانخرطت معها في حب ملتهب. كلانا أحب شيئه. هو أحب حزبه وجعل يخرج في الليالي ليعلق أعلامه على أسلاك الترام، وأنا أحببت أميرتي وسكنت المربع، نصف المتهدم، والذي في أحد جدرانه طاقة صغيرة تتسع لرأسي مع كتفي، حيث كنت أتلصص على أميرة. أميرة جاءت، أميرة راحت، أميرة ابتسمت لي... وهكذا احتلت كياني. كانت عيناي تلاحقانها وذهني أيضا.

كيف حدث واكتشفت هذا الكنز الذي بقي تحت نظري كل هذه السنين؟ فتاة في عمري سوداء الشعر والعينين. لها شامة على خدها ولها أجمل ابتسامة شاهدتها في حياتي. عندما تبتسم أميرة ترقص الدنيا كلها. أما إذا عبست... لن أقول لقد نسيت، فأنا أتذكر الأشياء الجميلة فحسب.

آه ما أجمل تلك الأيام. الحارة والأزقة الضيقة وأحجارها المرصوفة والمصقولة. المربع والطاقة وأميرة. ماذا حدث لهذا كله، ماذا حدث لأميرة؟ هل مازالت النساء يزغردن في الحارة؟ لو أعلم أن الطاقة لم تزل بعد لاشتهيت إدخال رأسي فيها والنظر إلى حوش دار أميرة مائة يوم أخرى.

– ماذا حدث؟ أين أنا؟.

– لاشيء، مجرد انهيار عصبي بسيط جعلك تتاكد نفسك وتسبها وتشتمها، سيزول غدا. إنه إذن طبيب عصبي، يلبس عوينات وصدرية بيضاء. في يده إبرة زرق مليئة. إنني إذن في مستشفى. حسبت في بادئ الأمر أنني في سوق الهال. خيار، بندورة... كوسا... تعا ودعه!. ما هذا؟ أنا أشتهي أكلة ملوخية... والله العظيم.

امتدت يد الممرضة البدينة من تحت الشرشف ولمست جسدي. حسبت أنها تريد إثارتي، وتأكد لي حدسي هذا عندما أنزلت لي لباسي بحركة بارعة كشفت عن مؤخرتي. وعوضا عن أن تزحف يدها إلى الأمام وخزتني إبرة الطبيب. رفعت من جديد لباسي وغطتني بالشرشف ثم هزت رأسها للطبيب توافقه قوله إني سأنام إلى الغد. لم أرهما وهما يخرجان، ربما استلقيا على السرير الآخر الفارغ وشرعا يفعلان الحب.

– ومتى ستسافرون؟.

– غدا يا أميرة.

– إلى أين؟

– إلى الأرجنتين

– وأين تقع هذه أيضا؟

– سنرحل إلى بيروت أولا بالقطار ومن ثم بالباخرة إلى الأرجنتين. يقول والدي إننا سنكون في أمان وسنجد عملا لي وله.

قالت برجاء وصدرها يعلو ويهبط كالأمواج التي شاهدتها أثناء سفرنا:

– ولكن لماذا؟ ألا يوجد هنا عمل؟ ألا يوجد أمان؟.

اضطررت أن أقول لها ما كان أبي قد حذرني من قوله لأي إنسان:

– إنه متورط بالسياسة والفرنسيون يلاحقونه. إنه يخرج ليلا وفي عبه خرق حمراء وخيطان من القنب. يربط الخرقة بالخيط ثم يربط به قطعة حجر. يقذفها فتعلق على أسلاك الترام. ألم تسمعي الناس كيف يبتهجون لمنظرها. إنه تغيير شكل لهم.

وفجأة شرعت بالبكاء. جعرت الفتاة حتى بح صوتها. سوف أفقدك يا عبد الله، أنا أعلم أنني سأفقدك. أنت تهرب مني. ماذا قلت لي في تلك المرة التي جئت فيها إلي، هنا في بيتنا بعد أن ذهب أبي وأمي إلى جدتي؟.

– لم أقل شيئا. كنتِ طوال الوقت تسكتين أختك الصغيرة. لم تترك لنا المجال، كانت تبعق وتزعق كأن بها فتقا. كنت تهزجين لها:

– "تس تك، تس تك، تس تكها، راحت أمها وخلّتها، خلتها تبعق جنبي، والمصاصة نسيتها".

مسحت دموعها وابتسمت، أي قمر هذا الذي يحبني وأحبه. مسحت دموعها وشرقت أنفها فبان وجهها محمرا، شيء مذهل هذا الوجه الأحمر في الحلة السوداء.

– تعال إذن هذا المساء، لن تكون أختي معي، أريد أن أودعك، سأكون لك وحدك!.

أختها الزاعقة الباعقة لم تكن معها فعلا. أمسكتني من يدي وجرّتني. كنت كبغل حرن. ماذا سيحدث؟ ماذا تريد أن تفعل؟ أنا أخاف عليها أكثر مما تخاف على نفسها. دخلنا غرفة والديها. كان هناك سرير خشبي عال وطقم فضة وصورة كبيرة لرجل مرعب جدا. جلسنا على طقم الفضة فلم تصل أقدامنا إلى الأرض. كنا صغيرين إذن...

قالت لي وهي تحدق إلي بعينين باكيتين حازمتين:

– سوف تنساني يا عبد الله. أنا أعرف ذلك. سوف تنساني حالما تطأ قدماك أرض البريانتين تلك...

– ماذا؟ اسمها الأرجنتين.

هزت رأسها. سحبت طرف ثوبها بحركة مدروسة ومسحت به عينيها. بان فخذاها إلا أنني كنت مهذبا فأطرقت إلى الأرضية. هكذا يجب أن أكون. المحب يخاف على شرف محبوبته. عبد الله يخاف على أميرة.

لا أعلم يا ربي لماذا سألتني هذا السؤال وعيناها تتحديان:

– لقد أقسمت لي أنك لم تحب غيري في حياتك، أريد أن أعرف، هل سبق ولمست امرأة قبلي؟ هل ذهبت إلى بحسيتا* يوما من الأيام؟.

قلت بخجل ودهشة:

– لا!.

– أقسم!.

أقسمت لها بشرفي. نزلت ووقفت أمامي. بحركة بسيطة أصبح ثوبها على الأرض.

أصبحت عارية تماما، كما جاءت إلى هذه الدنيا. كان جمال الدنيا أمامي. عارية، مكتنزة، بيضاء. صدر، ثديان، بطن وسرة. عجيزتها وجبل فينوس. هل أحلم؟ أميرتي عارية تعرض علي عريها وهي تنظر إلى عوارض السقف الخشبية. جحظت عيناي. فركتهما. بلعت ريقي تسع مرات. هل أمد يدي؟. "وهبت علي رياح خماسينية حارة". كان كل شيء فيّ يحترق. من رأسي حتى أسفل بطني. سارت إلى السرير ثم استلقت عليه. ظلت تنظر إلى السقف بحزم وفخذاها مضمومتان.

كيف استطاعت أن تنظم كل ذلك؟. رأسها الصغير كيف استطاع؟. (حتى أن الملعونة قد نتفت شعر عانتها بعجينة من السكر). مدت يدها تدعوني إليها. نزلت وسرت إليها كأكثر الناس خبلا في التاريخ. لم أكن حتى أحلم برؤية ركبتها... اقتربت منها. استدارت إلي وقالت:

– حسنا... سافر غدا، ولكن عليك ألا تنساني. سوف أمنحك شيئا لن تنساني بعده أبدا. هيا... هيا تلمسني بيديك، تلمس جسدي... احفر في ذهنك أول ملمس لجسد امرأة في حياتك. مددت يدي ورحت أمررهما عليها وهما ترتجفان. الشعر أولا، ثم الوجه، ثم الثدي، ثم البطن، ثم كل شيء، أقول كل شيء...

بقينا ربع ساعة هكذا. كنا نرتجف. هي كانت ترتجف وتبكي وتشرق أنفها. انحفر ملمسها في ذهني وانغرست صورة كل جزء من جسدها فيه أيضا.. إلى الأبد. لفت نفسها بالشرشف ونهضت. كانت الفتاة شقية. إنها تحب ولذلك هتكت سرها إلى من تحب من أجل أن تكون الفتاة الأولى التي تأخذ عقله.

قالت وهي تجهش: هيا ارحل... قبلني وارحل، لن تنساني أبدا!.

فتحت عيني، كان هناك ضوء خفيف ينوس من مصباح صغير. ربما تركوه مشعولا كي تأتي الجن في الليل لتزعجني. كل شيء يدل على أنني مازلت في المستشفى. الغرفة نفسها، عارية الجدران، ورائحة نفاذة لليود قد استوطنت منذ زمن طويل. نظرت إلى النافذة. كان الفجر يتنفس على المدينة الهادئة. وشيئا فشيئا وصلت إلي أصوات قرقعة السحاحير والعربات وهدير محرك سيارة شاحنة. مددت يدي. أميرة ليست على السرير بجواري. كيف خطر لي أن أبحث عنها هنا؟ لن أجدها طبعا، فلماذا بحثت عنها. إنها ليست موجودة، إنها فقط في ذهني، في ذاكرتي. أمضيت أربعين عاما أبحث عن امرأة تشبهها، فلم أجد. تزوجت زوجتي الأولى. كانت تشبهها بعض الشيء في الشعر والصدر والمؤخرة. وعندما دخلنا غرفة الفندق وعلقت بطاقة (بدون إزعاج) على الباب اكتشفت أنها مختلفة عن أميرة. طلبت منها أن تستلقي عارية، ففعلت، إلا أنها كانت منفرجة الساقين. لم يخفق قلبي تلك الخفقة ولم أبلع ريقي تلك البلعة، ولم ترتجف يداي تلك الرجفة، ولم تلتقط يداي تلك اللمسة... لم أجد شيئا من كل هذا الذي كنت أبحث عنه. ولكنها كانت زوجتي في كل حال، فشعرت أنني في حاجة إليها فكان ما كان...

طبعا أنا لست بذيئا إلى درجة أن أسرد لكم ما حدث بيني وبين زوجتي. ولست إباحيا أيضا. إن من يريد أن يعرف ماذا جرى، عليه أن يتزوج بامرأة سوداء الشعر مكتنزة الجسد ويذهب معها إلى أحد الفنادق!.

أخرجت سجائري. وجدتها في سترتي. أخذت سيجارة ولم أجد كبريتا، وكأنني جنرال أرجنتيني، ضغطت زر الجرس فسمعت صوته الرقيق المكتوم يتردد في الخارج. وكأن الممرضة البدينة، التي ربما ضاجعت الطبيب صاحب العوينات في السرير المجاور لسريري، كانت نائمة على باب غرفتي، فتحت الباب للتو ودخلت. استغربت استيقاظي في تلك الساعة. وضعت يديها على خصرها وهزت وركيها على طريقة الأفلام المصرية:

– هه، أنت مستيقظ، كيف حدث ذلك؟ هل أنت معتاد على المهدئات والمنومات؟...

– لا. بل أنا هارب منها ومن حظي التعس أن أستخدمهـــا هنا...

– ماذا يعني هذا؟.

– لاشيء، هل معك علبة كبريت؟.

– معي قداحة، التدخين ممنوع!.

– أريد أن أدخن، فأنا لست مريضا. إن ما حدث كان بسبب السفر الطويل بالطائرة وتغير الجو.

اقتربت من السرير ثم أسندت عجيزتها الضخمة عليه. صر السرير وكأنه سينهد. قالت وهي تصر على إقناعي بأنني مريض:

– لقد شتمت نفسك!.

– حسنا... ولكني لم أشتم الآخرين. هل كل من يشتم نفسه في هذا البلد تأتون به إلى هنا؟.

– ولكن الناس قالوا أنك تعرضت إلى انهيار عصبي في المطعم...

ها... ها... هاه... ضحكت بخبث ثم قلت:

– آه عرفت، كان ذلك بسبب الجوع. كنت جائعا. الأطباء أكدوا لي مرة أن مركز أعصابي يقع في معدتي.

ضحكت الفتاة حتى كادت تنقلب من السرير. كانت ضحكتها جميلة تشبه ضحكة " كلينت إستوود " إنها ظريفة حقا هذه الممرضة البدينة. أخرجت قداحتها وأشعلت لي السيجارة. تربعتُ على السرير ثم مددت لها علبة سجائري. أخذت واحدة بتردد إلا أنها أخذتها في النهاية وهي تقول:

– أميركانية؟. أنا لا أحبها... ولكن هيا لن أخذلك.

– شكرا، وماذا تدخنين؟.

– دخان وطني، أنا وطنية (ضحكت) ثم إن الدخان الأميركاني كله مهرب، ثمنه مرتفع.

شدت انتباهي كلمة " وطنية " أحسست ببرودة تسري في جسدي. هل هذا معقول؟ سألتها:

– هل ترفضين السجائر الأميركانية بدافع وطني حقا؟.

نفثت دخان سيجارتها ومطت شفتها السفلى الممتلئة وقالت:

– ولمَ لا؟ كل شيء من الوطن جميل.

ثم قالت وهي تغمز بعينها: حتى الرجال!.

ضحكنا. احمر وجهي أنا. أما هي فلا، فطبقة الدهن السميكة في وجهها تمنع الدم من التسرب إلى بشرتها.

أحسست أن علي أن أبادر، فها هي تعرض علي نفسها بصراحة. كم أشتهي مضاجعة امرأة من بلدي. كم سيكون ذلك جميلا... فطالما حلمت بذلك. فكرت... هل تحب المسنين؟ فالطبيب شاب في الثلاثين وربما كانت قد ضاجعته في السرير المجاور عشرات المرات، أم أنني أحلم...؟ لا... فأنت لا تحلم. الممرضات يتعاملن مع الجسد البشري بسهولة. والكبت الجنسي هو شكل من أشكال الخوف من الآخر، من جسد الآخر، وطالما هي تلمس الأجساد يوميا، دون حرج، فهي لن تمانع إن كنت ظريفا. سألتها كي أفتح الطريق أمامي:

– هل سهرت طوال الليل؟.

– نعم فالليلة مناوبتي.

– إذن فأنت تشعرين بالنعاس، لماذا لا تأتين وتستلقين جانبي.

زورتني بعينيها الحادتين. هزت رأسها تهددني ثم همست: كف عن ذلك!.

قذفت عقب سيجارتها من النافذة ونهضت. أمسكت بيدها أمنعها من المغادرة وقلت لها:

– أنت شابة ظريفة و...

أفلتت يدها ومسحت بها على شعري وهي تقول بلطف شديد كأنها تهدهد طفلا:

– وأنت عجوز ظريف. هيا... عد للنوم، الفطور في السابعة وسوف نخرّجك في العاشرة فأنت لست مجنونا بل نصف مجنون...

أحسست بالإحباط. إذن أنا عجوز، ويبدو عليّ ذلك. يا لها من امرأة. ماذا سأحس إن أنا لمستها. هل سأستعيد ملمس أميرة؟. قلت لها بإصرار:

– إذن قبليني!. هيا قبليني مادمت تفضلين الشباب!.

ضحكت بإحراج. ماذا تفعل؟. قالت حسنا وقربت وجهها. قبلتني قبلة ناعمة في شفتي حاولت أن تطيلها قليلا. كسبت الفرصة ووضعت راحتي على فخذها. يا إلهي... كتلة هائلة من اللحم الصلب. ارتدت إلى الوراء وهي تهز سبابتها في وجهي معاتبة. قالت هيا عد للنوم!. ثم ابتعدت...

تركتها ترحل دون أن أتشبث بها (ربما احتارت هي أيضا لتركي إياها ترحل) فأنا لم أشعر بشيء مما كنت أبحث عنه.

نهضت من سريري. تناولت أدويتي الخاصة من حقيبتي وأخذت الجرعات الموصوفة. ثم دخلت الحمام وأخذت دوشا فشعرت بنشاط غير معتاد. وفي العاشرة حمّلوني أمتعتى وخرّجوني. رافقتني الممرضة حتى الباب ثم قالت: مع السلامة يا دون جوان!. أخذت سيارة أجرة وجعلت سائقها يبحث عن غرفة فارغة في جميع فنادق المدينة. ظللنا ساعتين نبحث دون جدوى. شيء رائع حقا. بلدنا أصبح من الدول السياحية الكبيرة في العالم، حتى في إسبانيا تستطيع أن تجد فندقا يؤويك، أما هنا فلا. فنادق كبيرة وصغيرة. أسماء عظيمة (إنترناسيونال) وأسماء محلية. فنادق بخمس نجوم وفنادق بلا نجوم. كل الفنادق مشغولة. كم حسدت ذلك السائح الذي حصل على غرفة تحتوي على ثلاثة أسرة. لا أظن أنه يجمعها معا ويتقلّب عليها كلها. كان ذلك في فندق من الدرجة الثانية (هكذا أكد لي الموظف). فندقنا يا سيدي من الدرجة الثانية... في المدينة تستطيع أن تجد فنادق الدرجة الخامسة.

الفندق من الدرجة الثانية، ومع ذلك لم يبق لديه سرير واحد خالٍ.

– من أين أنت يا أخ؟.

– من الأرجنتين. (أخرجت له جواز سفري كي يصدقني فيعطف علي فيفرش لي فراشا في الصالون) صاح السائح الذي كان يقف إلى جواري ويراقبني وأنا أتحدث مع الموظف.

– الأرجنتين؟...

وماذا في ذلك؟ مريم العذراء ليست من هناك في كل حال. أجبت بضعف لأن علي أن أرحل:

– نعم...

صاح مرة أخرى (وكأن بي صمما)، وهو يشير إلي بسبابته:

– مارادونا؟...

– نعم... مارادونا...

ضحك السائح الأشقر جدا وصافحني. ها هو الفرج قادم. إنه ينام في غرفة بثلاثة أسرة ويدفع ثمنها كاملا. سألته بالإنكليزية:

– وأنت؟...

– من السويد!.

أشرت إليه بسبابتي أنا أيضا وصحت بدوري:

– أنغمار برغمان؟.

قال: نعم،.. برغمان... ها... ها... ها...

عانقته. ثم قلت له إلى اللقاء فأنا راحل لأنني لم أجد سريرا في هذا الفندق، فحلف علي الرجل أن لا أغادر، فهو يستطيع أن يمنحني سريرا. إنه ينام في غرفة بثلاثة أسرة ويستخدم سريرا واحدا فقط. تمنعت قليلا، وهل علي أن أقبل من فوري؟.

– دعك من هذا يا رجل، فسوف تتضايق، فأنا أشخر في منامي.

فقال بحماسة منقطعة النظير:

– لا بأس... لا بأس... فأنا أشخر أيضا سنيور!.

حسنا مادام الأمر كذلك فأنا أقبل. صرفت السائق وحملت أمتعتي إلى غرفة السويدي. كانت الغرفة بثلاثة أسرة فعلا، تتصل مع العالم بواسطة نافذة ضيقة وعالية، وفيها خزانة تزقزق بصوت عال رفيع، بلا حمام بلا مرحاض، عليك أن تخرج إلى الممر الخارجي، فلكل طابق حمام ومرحاض عموميان مشغولان باستمرار. قضيت يومي وأنا أتحدث مع مضيفي السويدي. تحدثنا عن مارادونا والسنيورة بيرون والجنرالات وحرب المالفيناس. أكدت له أن مارادونا سينتقم لنا في الدورة القادمة لبطولة العالم في كرة القدم. انتظر وسترى. إنهم يراهنون عليه لجعل الناس ينسون الإهانة وترتفع معنوياتهم. لم يترك لي الرجل وقتا للتفكير ووضع خطتي والتي بموجبها سأرحل إلى الشمال، إلى مدينتي الشمالية الحبيبة، مدينتي التي سافرت من أجلها ثلاثين ساعة كاملة على طائرة نفاثة، كي أموت فيها على الطريقة الشرقية.

الحق على الفنادق... هذا أكيد ولذلك جاملته. رحت أجيب عن أسئلته بتركيز شديد رغم أن مثل هذا التركيز أصبح بالنسبة إلي من سابع المستحيلات بعد أن استوطن الاصفرار في جسدي.

– مارادونا سوف لن يترك الإنكليز يفلتون... إنه طفرة في القرن العشرين... نجم الملاعب. نجم العالم كله. سعره عشرة ملايين دولار، إنه يستأهل عشرين، إنه....

هذا الإنسان لن يكف... إنه لا يفقه شيئا سوى كرة القدم، وأنا أجامله رغم أنني أكرهها.

هل تعلمون أني لم يسبق لي أن شاهدت مارادونا يلعب في الملاعب؟ صحيح أن جاري يذهب كل صباح كي يشاهده وهو خارج من بيته ويعود وهو يمدح خصائصه بانفعال، إلا أنني أكره بشدة تلك اللعبة.

سأعلن شيئا مهما، لقد اعتدت إطفاء التلفزيون حين يعرض مباريات كرة القدم. هذه اللعبة لا أستسيغها مطلقا، والحمد لله أنني سأموت خلال المائة يوم القادمة ولم أصفق لها أبدا. إنها تدجين هائل للناس. أما أنا فلا أدجن. فيها تقوم الحضارة الغربية بإبراز إمكانياتها الهائلة في جعل مليارات من البشر ينسون همومهم وجوعهم وأمراضهم وأولادهم. حتى وطني الثاني، أمريكا اللاتينية مصابة كلها بهذا المرض. الجنرالات يريدون ذلك. الحروب تقام من أجل كرة القدم. هزائم قومية يستعاض عنها بانتصار واحد في لعبة كروية واحدة... هذه هي الدنيا التكنولوجية، والحمد لله أنني عدت إلى الشرق، أظن أن هذه الأشياء لا وجود لها هنا...

أخذت طرف الحديث وسألته عن روح الشرق. إن كان يريد أن يتكلم هكذا رشا، فليكن حول الشرق. إن ما يهمني الآن هو الحياة الشرقية والموت الشرقي، الحواري والأزقة، الدور الشرقية وزخارفها، الأحواش، البرك، وزرق الحمام. الأهازيج وأناشيد الأمهات والأطفال وهم يلعبون. الصدق الشرقي والنبل الشرقي. إن ما أريده الآن هو أن أعود لعيش كل ذلك خلال أيامي الباقيات.

(طبعا، يدخل ضمن ذلك كله، شعوري الذي كنت أحسه حينما كنت أتحدث مع أميرة من طاقة المربع، وشعوري ذاك، الذي انطبع في ذهني وفي قلبي وجلدي حينما استلقت عارية على فراش والديها ورحت أتلمسها وأنا مصعوق. وقد أطلقت على ذلك الشعور اسما متميزا وهو: شعور أميرة).

قال حفيد الفايكنغ مؤكدا خطأ نظريتي:

– الشرق هو الشرق، الشرق متخلف وسيبقى هكذا إلى الأبد. إن ما تبحث عنه ليس شيئا أصيلا مستوطنا في نفوس الشرقيين...

– إنك تظلمهم يا عزيزي، وإلا فلماذا تسوح هنا وليس في سويسرا أو في إسبانيا؟.

قال وقد أصبح عاريا تماما استعدادا لخروجه إلى الحمام.

– أنا ني سياحة لأسباب أخرى.

– وما هي؟

– جئت لأصور الآثار. الحجارة غير البشر يا سنيور. هذه البلاد تقوم على بحر عن الآثار القديمة المنقوشة بالهيروغليفية. إنه متعة حقيقية أن نكتشف شيئا جديدا لا يعرفه الغرب. مثلا، كنت هنا قبل ثلاث سنوات، على الساحل بالتحديد. صورت حجرا نقشت عليه كلمات غريبة قعدت عليها سنة كاملة أحللها، وبدت هذه الكلمات عبارة عن بيتين من الشعر لم يقرأهما أحد قبلي. إن ذلك يعذ سبقا عظيما لي. نشرت ذلك في مقال خاص بالنيوزويك وربحت مبلغا محترما.

سألته وأنا أتمنى أن يضع منشفته حول خصره ليستر عريه الكريه:

– ولكن الشرقي سكب في تلك الحجارة روحه، فلماذا تفصل الروح الشرقية عن الأثر؟.

قال وقد التقط المنشفة وثبتها حول خصره وكأنه قرأ ما يجول في ذهني:

– لا وجود لشيء اسمه الروح الشرقية. هناك شيء واحد يتردد في روح الشرقي.

– وما هو؟

– النفط وأفلام البورنو...

ضحك: ها... ها... ها، وخرج ليستحم...

يا إلهي... كم هو كريه هذا السويدي اللعين. إنه لا يفقه شيئا، لم يختبر ما خبرته في حياتي فلماذا يتمنطق ويتفلسف كأنه أعلى شأنا من كل هذه الأمم؟... أعلى شأنا مني حتى... ياله من لعين. إنه سويدي في كل حال، وما هو السويدي؟ إنه شخص متكبر أبيض البشرة بشكل مقرف، يسعى جاهدا لحرقها كي يتباهى بلون البرونز في بلاده.

في إحدى المرات شاهدت فلما تسجيليا عن السويد. فجأة سطعت الشمس في تموز. أصبح لديهم عيد. تركوا أعمالهم ومشاويرهم ومهماتهم وجلسوا في الشوارع يعرضون بشرتهم لأشعة الشمس. كانت هناك صبية في العشرين، تعرت على الرصيف، وجلست على إحدى درجات محكمة العدل. ربما جلس إلى جوارها أحد القضاة وجعل يمتع ناظريه بعيدا عن القوانين.

إنه شخص معقد، فلماذا أنت غاضب؟ (ليس أنت أيها القارئ بل قلت ذلك لنفسي) بورنو؟ لماذا البورنو، ما دام كل شخص يستطيع أن يعري صديقته أو زوجته ويقعد أمامها ليمارس العادة السرية؟. هذا الشخص معقد ويفتخر بصناعة فن الجنس المشتهرة بها بلاده، أما الشرق فلا يأبه لهذه الأشياء. النفط اكتشف هنا... هذا صحيح وماذا في ذلك؟ هل يصدرونه أم يسكبونه في البحار والمحيطات فتتلوث، وتموت الأسماك، وتنتشر بقع الزيت حتى أوروبا فتقوم جماعات الخضر وحماية البيئة بمظاهرات ضد العرب؟. هذا الرجل متفلسف وبغيض، اتركه يا رجل!. لو لم يكن مضيفا رقيقا محبا لمارادونا لكنت قد صفعته وحملت متاعي

وخرجت لأبيت في أحد المساجد. هذا الشرق يختلف عن شمال أوروبا. عليه أن يعرف ذلك تماما، الروح الشرقية موجودة رغما عن أبيه. في بوينس آيرس شاهدت فيلما من إخراج السويدي أنغمار برغمان. " وجها لوجه" هذا هو اسم الفيلم. ليف أولمان، بطلة الفيلم وزوجة الخرج تكتشف فجأة أنها تجاوزت الأربعين، أي أنها اقتربت من خريف عمرها، أي أنها مرة أخرى، اقتربت من القبر، فأصبحت تعيش في وسواس الهرم والموت، فيجن جنونها، وتتهيأ نفسها امرأة عجوزا متجعدة الوجه واليدين، فتخاف ويصيبها الهلع، فتتجرع عشرات الحبوب المهدئة رغبة منها بالانتحار، ورغم أنهم ينقذونها إلا أن الشيء الذي أريد قوله هو أن الإنسان الشرقي بعيد عن هذه الوساوس. ما إن يكبر حتى يحس بنفسه حكيما وعاقلا أكثر. الخوف من الهرم والموت هنا محذوف. هذا شيء على السويديين أن يتعلموه من الشرقيين. هذه هي الروح الشرقية. عليهم أن يتعلموا كيف يمكن أن يسوق أحد الرجال سيارة مفخخة عبر عشرات حواجز التفتيش بأعصاب متينة، ثم يقوم بتفجير نفسه بجهاز صنعه الغرب ليتحول بظرف عشر الثانية إلى بخار لا يتكثف أبدا، ويصير مائة وخمسون ضابطا إسرائيليا إلى جثث نتنة في قبرهم الذي كان، ذاك المبنى في مدينة صور.

– الحق عليك، أنت الذي بادرته بالكلام حول الشرق. إن هذه الأمور لا يفقهها غيرك فلماذا تتشدق بها مع كل إنسان؟.

– حسبته إنسانا عاقلا، سائحا مثقفا.

– عليك اللعنة، دعه يتحدث عن كرة القدم فقط!.

– إنني لا أطيقها، ولا أريد سماع أي شيء عنها !.

– إتفوه !... هيا انقلع من هنا.. اترك الفندق وارحل إلى مدينتك الشمالية، يا لك من متشدق... ومتفلسف. حذرتك مئات المرات ألاّ تتفوه بهذه الأمور مع أي كان.

– حذرتني... حسنا. ولكن لماذا تبصق علي؟.

– لأنك تستاهل ذلك!.

– أنا أستاهل ذلك؟... إذن إتفوه!.

– يا لك من حقير... لماذا تبصق علي؟...

– لأنك سافل!

– أنت مجنون.

– بل أنت المجنون!...

– أنت...

– ماذا؟... ماذا حدث يا سنيور؟ لماذا تشتم نفسك؟ لماذا تقول عن نفسك مجنون؟ يا سنيور يا سنيور هل أنت بخير؟...

مت من الخجل. الحق عليه ولكنني مت من الخجل. قلت له وأنا أستلقي على سريري وأستدير إلى الطرف الآخر:

– لم يحدث شيء. هذه عادة كسبتها منذ الصغر. عندما أغضب أتحدث إلى نفسي، ولقد أغضبتني بحديثك عن النفط والبورنو، هذا كل شيء. سأنام ساعة ثم أخرج لأحجز مكانا في البوسطة المسافر إلى الشمال.

"إذا بدك تشوف العجب، جيب البحر لحلب..."

مثل قديم وجميل عرفته وأنا في العاشرة. ماذا يعني هذا المثل؟ ما هو العجب الذي سنراه؟ على الأغلب أن ابن المدن الداخلية سوف ينسطل لمجرد رؤية البحر. الخوف والرهبة، الإحساس بالضخامة والجمال، وأخيرا الغموض الذي تشتهر به البحار، هي العجب الذي نراه على محيّاه حين يقف ساكن المدينة الداخلية أمام البحر. شيء آخر سوف نراه، ما هو؟ إنه جنون خلع الألبسة والبقاء في الثياب الداخلية البيضاء والصفراء والركض نحو البحر للغوص فيه دون تروٍ واتزان. كل هذا حدث معي عندما شاهدت البحر أول مرة في بيروت ما عدا الألبسة والطرطشة والبصاق والصياح. كنت أهرول فاغر الفم جاحظ العينين وعلى ظهري جزء من متاعنا الذي نحن راحلون به.

صاح أبي يستعجلني أكثر... هيا يا ولد هيا يا منحوس، إن سافرت الباخرة دوننا فسيكون عقابك عظيما. ركضت حتى ضاق نفسي، فالجو حار، والرطوبة عالية. وركضت أمي وركض أبي وركضت أختاي. كلنا نحمل الأمتعة ونركض. لم يكن مع أبي قرش واحد لاستئجار عربة، أو للعودة من حيث أتينا، لا نملك سوى بطاقات الدخول إلى الباخرة.

بيروت جميلة، كل شيء فيها جميل، ولكن والدي لا يريدني أن أتوقف قليلا لأسترد أنفاسي وأمتع نظري بمناظر شوارع بيروت وبيوتها، ثم هذا ليس وقته. هيا أركض وإلا فاتتنا الباخرة. وصلنا إلى الميناء. جلسنا على الفرش والصرر والصناديق ورحل أبي ليستكشف أخبار الباخرة. ماذا حدث يا عبد النبي؟ سألته المسكينة التي لم تسترد أنفاسها بعد. قال وبسمة عريضة ترتسم على شفتيه إن الباخرة لن ترحل إلا في صباح الغد.

صعدنا إليها. قطعة حديد غير مستقرة. عندما دققوا في بطاقاتنا أنزلونا إلى قعرها. هناك، في ذلك المستودع الصدئ، مكثنا تسعة وعشرين يوما. ويوم صفرت وبصقت الباخرة إيذانا بالرحيل، وقفت على الإفريز ورحت أودع الأرض التي تقف عليها أميرة، والتي قضيت فيها الخمس عشرة سنة الأولى من عمري. (إن كنت دقيقا في الحساب فتستطيع أن تتأكد أنها تساوي ربع ما عشت حتى الآن تماما).

ابتداء من هذه اللحظة تبدلت حياتي. لم أعد الصبي الذي يقضي معظم يومه وقد دس رأسه في طاقة المربع. ولم أعد ذلك الصبي الذي يلعب بصخب في الحارة وينشد ويتعلم الأبجدية العربية ويقفز من فوق أسوار المساجد ويستمع إلى الابتهالات بشغف ويسخر من الجنود السنغاليين الذين جاء بهم الاحتلال. لم أعد ذلك النحس العاطولي الباطولي، فقد استخدموني في السفينة لغسل الصحون، وراح أبي يعمل طباخا وذلك لقاء إطعامنا.

شيء جميل أن تسافر على إحدى البواخر، فحياتك العملية لن تتوقف، بل فيها ستبدأ كما هو في حالتي.

بعد تسعة وعشرين يوما وصلنا إلى مدينة كبيرة، فرست السفينة في مينائها.

إنها بوينس آيرس. مدينة كبيرة ذات ميناء واسع تزاحمت فيه السفن والبضائع والروافع. لا يوجد مكان لقدم واحدة. ضعنا فيه، ولم نخرج منه حتى ضعنا من جديد في المدينة.

شوارع عريضة مسفلتة، أبنية ضخمة، أبنية عالية. سيارات، قطارات، نظام، نظام... نظام. بعد ثلاثة أيام من الإجراءات والنوم في أحد المستودعات، دخلنا المدينة سائرين على أرصفتها، حاملين أمتعتنا الغالية. كيف جئنا بمحض إرادتنا إلى هذا الضياع؟ سرنا وقد أصابنا الوجوم، خائفين من المجهول، من نصح أبي؟ من قال له جرب حظك في الأرجنتين؟... عليه اللعنة...

بقينا ستة أشهر ونحن نحس بالضياع وصغر الحجم. ومن لا يحس بذلك؟ ففي مدينتنا الشمالية (أصبحنا نقول في الوطن) لا وجود لمثل هذه الأبنية وهذه الآلات وهذه المداخن. صحيح أنه توجد مآذن ولكنها لا تنفث الدخان الأسود، وبإمكاني أن أصعد على واحدة وأن أؤذن لإحدى الصلوات الخمس.

هكذا إذن... بعد ستة أشهر أوجدوا لنا عملا في مصنع للنسيج. والدي كعامل نول وأنا كمناول. وبعد سنة هجرنا مكان الإقامة الجماعي وأصبح لنا بيت بغرفتين. وبعد سنتين تعلمت الإسبانية وأصبحت تلميذا في إحدى المدارس المسائية. وبعد ثلاث اشترينا أسرّة ومذياعا، وأصبحنا أنا وأبي أصدقاء.

هذه هي حياتنا، هذا هو أهم شيء فيها، أما الباقي فهو استمرار منطقي وغير منطقي لهذا كله. المهم، أننا تركنا البيت والحارة والمدينة. تركنا الأقارب والأصدقاء وأبناء بلدنا. تركنا الأمسيات والدربكة والزرازير والسنونو، ومزاريب الأسطحة. تركنا أغاني سيد درويش وعبد الوهاب وعمر البطش:

علمتني يا نور عيوني   الامتثال واحتار دليلي...

بعد خمس سنوات استطعنا الاندماج تماما في حياة الأرجنتين. والذي يعتاد الحياة هناك يعني أنه اعتاد الآلة والضجيج، وحركة المرفأ والمطار. هنا كل شيء تسيّره الآلة، حتى حياتنا. تصوروا، أن الغاز يصل إلى المطابخ بواسطة الأنابيب والإنسان يصل إلى الطوابق العليا بواسطة مصعد كهربائي. هذا شيء عظيم حقا. الراحة مؤمنة، ولكن العمل مجهد. كنت أعود من العمل وأنا مرهق، فقد أصبحت عامل نسيج وتعلمت

أن أقف خلف النول الآلي كأبي. كنت أعود مرهقا من الوقوف ومن الضجيج. ذهبت إلى غير رجعة أصوات تلاطم أعواد النول اليدوي الخشبية وحل محله صوت رتيب طويل للآلة.

أصبح لي صديق. كان لا يشبه الآخرين. شعر أسود فاحم ووجه أحمر. قال لي ونحن نشرب البيرة في مشرب ضاج بالموسيقى:

– انظر كيف أصبحنا، نحن سكان الأرض الأصليين... جاء الرجل الأبيض وجلب معه بندقيته وآلته. وما لبث أن أصبح السيد. في البداية جاء عشرة ثم جاء غيرهم. ولم تمض سنوات حتى كانت السفن ترسو وفي بطونها آلاف الغرباء الذين ما أن تطأ أقدامهم الأرض حتى تراهم يبيعون ويشترون.

فرّخوا، ازدادوا، كانوا يولدون كالأرانب، اللون الأبيض ينتشر بسرعة وفي كل مكان، واللون الأحمر ينكمش، يقاوم، يريد أن يعيش. قالوا لنا الأرض واسعة، سنعيش معا ونعمل معا من أجل أن تزدهر الأرض. قلنا لهم لا مانع لدينا، نحن وأنتم كيان واحد. أنتم أذكياء ونحن نعمل بلا كلل.

– وماذا حدث بعد ذلك؟.

قال لي وهو يمضغ قطعة من التبغ:

– مسكين الأحمر، فقد قهره الأبيض.

– ولكنهم موجودون في كل حال...

– نعم، الباقون منا أصبحوا بيضا من الداخل، لقد نسينا لغتنا وهدوء روابينا وأغاني أجدادنا وحكاياتهم.

صمتنا. لقد فهمت كل شيء. دفعنا ثمن عشرين قنينة بيرة وخرجنا من المشرب الذي أنهك أعصابنا.

قال لي أبى الذي شاهدني أرتدي ثيابي استعدادا للخروج:

– إلى أين إن شاء الله؟...

– ذاهب إلى خوان... (خوان هو صديقي أحمر البشرة).

– انتظر، لا تخرج اليوم!. سوف يأتي شاب لخطبة أختك لطيفة.

ها ها... أختي أصبحت كبيرة وعليها أن تتزوج. كيف حدث ونسيت ذلك. العمل والآلة والدراسة المسائية وصديقي العزيز خوان، أنسوني أن أختي يمكن أن تتزوج في الأرجنتين.

بعد ساعة دخل رجل لبناني الأصل، أصلع (في الأرجنتين جالية لبنانية ضخمة). رحبنا به أنا ووالدي. جلس الرجل الذي تجاوز الأربعين ومسح العرق عن صلعته. لم يكن خجلا ولم يتلعثم. كان صريحا ومباشرا (كان أرملا، فقد عرفنا بعد ذلك أن زوجته ماتت قبل شهرين). قلت له هل تفضل قهوتك حلوة أم وسط فقال إنه يفضل العرق. دخلت أختي وهي متجهمة وقدمت له القهوة، فلم نكن نشرب العرق ولا نقوم بصنعه في البيت. جلست لطيفة إلى جواري وجعلت تتفحصه بنظرات سريعة جاهدت أن تكون طبيعية، أما هو فقد شقشلها من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق.

لم أكرهه. قلت لنفسي مالي وماله فالبنت يجب أن تتزوج عربيا في نهاية الأمر. سمعتها تهمس في أذني أنه بشع. رحل بعد أن وعدناه بإعطائه ردنا في خلال أسبوع وبعد أن أفهمنا أنه يملك مطعما لبنانيا في الضاحية.

– هه، كيف رأيته يا لطيفة؟

سألت والدتي بلهفة، فأجابت أختي بصراحة:

– لم أحبه يا أمي، إنه بشع وأصلع، وعيونه نهمة تأكل الإنسان أكلا...

جحظت عينا والدي. إنه يريد فعلا تزويج البنتين... إنه يأكل هم الكبيرة التي تجاوزت السابعة والعشرين. ماذا؟... هل تريدين أن تقعدي في البيت؟ نحن لسنا في الوطن!. لم نأت إلى الأرجنتين كي نتعلم قلة الحياء، ثم خرج الوالد مغضبا. سكتت أمي مطولا ثم قالت وعيناها مغروستان في البنت:

– جبنا لها عريس بالحيلة، قالت أقرع وله إيلة...

بعد أسبوع أخبرناه بالموافقة، فأصبح لي زوج أخت أصلع. جعل الرجل يأخذنا كل يوم أحد بسيارته الأميركية إلى الضاحية الجميلة فنتناول الغداء في مطعمه ونشرب العرق المكسور بالماء مقتدين به.

استيقظت بعد غروب الشمس. كانت الغرفة متسربلة بعتمة خفيفة والجو خانق. نهضت وأشعلت النور. خلعت ملابسي الداخلية التي تبللت بعرقي ثم وضعت الروب وخرجت إلى الحمام. كنت أشعر بوهن شديد وبآلام في مفاصلي. هذه هي الأعراض التي دفعت بي إلى عيادة الطبيب فاكتشفوا مرضي اللعين. قلت له يا دكتور إنني أشعر بوهن، وكأنني ركضت مائة ميل، فسألني منذ متى ووجهي أصفر هكذا فتعجبت لذلك، فلم أكن قد اكتشفت ذلك بنفسي. المهم... حللوا لي دمي وسألوا السنيور كومب. هذا السنيور دلّهم على المرض دون أي خطأ. هذا الجهاز الذي يفعل كل شيء. إنه يحدد الأمراض وطرق العلاج ومواعيد الشفاء أو الدفن. يلعب معك بجميع الألعاب، من الشطرنج إلى كرة القدم. من طاولة الزهر إلى الكاراتيه وحرب النجوم. إنه يتذكر عوضا عنك ويسأل ويجيب، يمتحن ويعطي النتيجة. يوقظك من نومك ليقدم لك أسعار القطن والحرير في البورصة. يدفع فواتير الهاتف والكهرباء والغاز. إنه في النهاية يستطيع، إن وضعت فيه قليلا من برازك

أن يحلله ويعطيك كشفا مجانيا لوضعك الصحي ويقدم لك النصائح ليديم تمتعك بهذا العصر الكومبيوتري العظيم.

هذا الجهاز البريء، اكتشف مرضي وحدد عدد أيامي الباقية. صحت وأنا تحت الدوش كذا وكذا في أمه!.

نشفت نفسي وعدت إلى الغرفة. كان سرير السائح السويدي فارغا. حمدت الله أنه في الخارج، ثم ارتديت ثيابي وتناولت أدويتي وخرجت.

سرت على الأرصفة وأنا أمتع نظري بمرأى عاصمة الوطن. كنت في حالة نفسية رائعة. دوش الماء البارد يوفر لي ذلك دائما. كانت الشوارع تغص بالسيارات والأضواء والناس، وكانت هناك مكبرات صوت في كل مكان. أغان وطنية وحماسية، أغاني " الآبا " و "مايكل جاكسون ". سمعت لحنا لأغنية هندية. الناس في بلدنا يستمعون إلى الموسيقى وهي عالية جدا. ربما لأن أصوات السيارات عالية هي أيضا. أخرجت سيجارة واشتريت كبريتا. أشعلتها ورحت أتلذذ بها. توقفت أمام فترينة لمحل بيع الأجهزة الكهربائية. أجهزة كاسيت وفيديوهات. من كل الأنواع وكل الأشكال. كانت تتردد من المحل أغنية وطنية وبصوت عال. ابتسمت دون أن أشعر. هذا يعجبني، فالشعور الوطني لديّ عالٍ.

أنا أحب هذا الوطن (أنا متأكد من ذلك) وأحبه عنيدا مشاكسا هكذا، وعزف أغنية وطنية على جهاز ياباني الصنع شيء فيه طرافة. ابتسمت لذلك مرة أخرى مما دعا صاحب المحل لمراقبتي. سرت من جديد. لعنت أبا تلك السيارات الفارهة لأنها تمنع بأصواتها تردد الأغنية حتى السماء.

طلبوا مني أن أشتري أوراق اليانصيب. ثم طلبوا مني أن أشتري دخانا وطنيا ومهربا ثم عرضوا علي شراء علبة سمنة ومحارم ورقية وفناجين قهوة تركية وسراويل جينز إيطالية.

وقفت بالدور حيث كتب اسم مدينتي. قلت للموظفة وأنا أبرز لها جواز سفري:

– محل في البوسطة ليوم الغد.

لم تفهم علي. أعدت طلبي ببطء فابتسمت وابتسم الآخرون. قالت وكأنها تبث دعاية لشركة النقل ببوينس آيرس:

– بوسطة؟... لم يعد لدينا بوسطة، عندنا باصات بولمان درجة ممتازة. إنها سريعة ومريحة ومكيفة. أخذت البطاقة وخرجت وأنا محرج. كأنك تعيش قبل خمسين سنة يا عبد الله. أخذت تكسيا وطلبت منه أن يوصلني إلى أي مطعم شعبي. قاد السيارة قليلا ثم توقف وقال:

– المطعم الشعبي ليس من مقامك يا مستر...

– وما هو الشيء الذي من مقامي؟.

– سوف آخذك إلى الشيراتون.

– لا أريد...

– إلى الميريديان؟.

– ....

– إلى الفاندوم؟.

– قلت لك أريد مطعما شعبيا. مطعما شرقيا أستطيع أن أتناول فيه عشاء من بلدنا... فول حمص، فلافل، مجدّرة... طبيخ الخبز!.

فقال وقد اكتشف ما أرغب فيه:

– كل هذه الفنادق تحتوي على مطاعم شرقية تقدم مثل هذه الأشياء... دفعت له حسابه ونزلت. هذا السائق غبي، إنه لا يفهم. سرت من حيث أتيت. كيف يمكن أن أشعر أنني صبي في الخامسة عشرة وصل إلى بوينس آيرس بباخرة صدئة؟ فجأة وجدت نفسي أمام فندقي. سألت الموظف إن كان بإمكانه أن يؤمن لي صحن فول ورأس بصل. هز رأسه، بعد نصف ساعة كنت ألحس الصحن.

صعدت إلى غرفتي فوجدتها كما تركتها. لم يعد صاجي بعد. جلست بجانب النافذة وقد قررت أن أضع خطتي: أين سأنام في المدينة، من سأزور، من مات، من بقي على قيد الحياة، كيف سأعرف العناوين، هل أعتمد على الذاكرة فقط أم علي أن أنشر إعلانا في الجريدة؟... عبد الله المشحور يبحث عن أقاربه الأحياء، فمن يجد لديه وثائق تثبت ذلك فليتصل ب... هراء، ستين هراء، وهل أحسب نفسي أمير ويلز. أجلت موضوع الخطة إلى حين وصولي إلى هناك. مكثت جالسا أمام النافذة المفتوحة. كان البعوض يدور حول المصباح الكهربائي الشاحب. هذا ليس بعوضا، ففي الأرجنتين يهاجم بكثافة، يتواجد في كل مكان، خصوصا بعد موسم الأمطار الاستوائية، حين هطول الأمطار بغزارة عجيبة تجعلك تشعر بطعم العفن يصعد من جوفك إلى حلقك. بلدنا جيد من هذه الناحية والحمد لله. عاصمة بلادي، لا أعرف كيف كانت تبدو، فأنا لم أزرها قبلا، فيها أبنية عالية وسيارات كثيرة. فيها مصاعد وأجهزة فيديو وساعات كوارتز، وفنادق عالمية. عاصمة بلادي قريبة من الجبهة، ترى في شوارعها وعلى أرصفتها كثيرا من الجنود المسلحين. إنها تتاكد الأمريكيين والإسرائيليين.

زفرت تنهيدة ونهضت. نزلت إلى الصالون وقعدت أشاهد التلفزيون.

كان هناك ثلاثة من العربان بلباسهم التقليدي يتثاءبون. طلبت فنجان قهوة وأشعلت سيجارة. كان يبث فيلما أميركيا. رحت أرتشف قهوتي وأنفث دخان سيجارتي المعطرة وأراقب ما تبقى من الفيلم والعربان الثلاثة.

"مبدأ الدومينو " فيلم سياسي أم بوليسي؟ السلسلة إن هي فرطت منها عقدة واحدة وجب فرطها كلها. هذا هو مبدأ الفيلم ومبدأ السي. آي.إيه. إن الفيلم يخلص في النهاية إلى أنه لا حدود لقوة وعظمة هذه المؤسسة. هذا الجبار الذي يستطيع أن ينشئ بلمح البصر مئات السلاسل، ويستطيع أن يدمرها بالسرعة نفسها أيضا... إلى أي عنوان أرسل المخرج فيلمه هذا ؟. إلى الجميع يا ترى؟ إلى كوبا وبلدي والساندينيين ؟... فشر! انتهى الفيلم. الحلقة الأخيرة قد دمرت. جعلوا يبثون الدعايات... صابون، برش غسيل، مساحيق، معاجين أسنان، فلافل، بهارات وكازوز. كل الدعايات من أجل الطعام وإزالة آثاره. العربان كانوا يتمتعون بمتابعة الدعايات.

انتهت الدعايات وابتدأت نشرة الأخبار. نهض أحدهم ليحول إلى قناة أخرى. طلبت منه أن يبقيها على الأخبار. عاد للجلوس فورا وهو يقول حاضر سيدي. وضعت رجلا على رجل ثم أشعلت سيجارة أخرى وأنا مستمر بمتابعة الأخبار والعربان. إسرائيل تهدد، أميركا تصرح.. تدعم إسرائيل. بلدي أصبح حسب رأيه بلد الإرهاب الأول. حملة تأديبية قادمة. حكومتنا تصدر تحذيرا، الاتحاد السوفييتي يدعم. العربان الثلاثة يتثاءبون. كان دمي يغلي، جعلت أسب وأشتم إسرائيل. ماذا تحسب نفسها؟ تريد تأديب فلان وتأديب علان، ماذا... هل الدنيا سائبة؟...

– سوف نفعل كذا وكذا في أمهاتهم!.

فجأة استدار العربان الثلاثة فاغري الأفواه من التثاؤب والاندهاش. تطلعت إليهم. تأكدت أنني شتمت بصوت عال، ثم تداركوا أنفسهم فهزوا رؤوسهم موافقين. لو لم يفعلوا ذلك لوقعت في إحراج كبير، ومع ذلك نهضت. قلت تصبحون على خير. قالوا وأنت بخير سيدي ثم خرجت. صعدت إلى غرفتي (أقصد إلى غرفة السويدي) وجدت النور مشتعلا. لقد جاء صاحب البورنو.

كان جالسا على سريره عاريا، دخلت ومسّيت عليه. قابلني بابتسامة وهو يفحص بعض أشرطة الفيديو. خلعت ثيابي ثم لبست منامتي واستلقيت على سريري بعد أن التقطت من حقيبتي رواية "هيجان" لفيلالنغا ورحت أقرأ. لم تشدني قضية مقتل غارسيا لوركا بقدر ما أثار انتباهي ذلك السويدي وهو يرتب أفلامه ويسجل ويشطب ويحك قذاله. ماذا يفعل؟ سألته بتطفل:

– إذن أنت تتاجر أيضا... قل لي، هل هي جميلة هذه الأفلام فأنا من هواة السينما! استدار نحوي وغمزني. لم ينبس بكلمة، بل تابع عمله باهتمام شديد. عدت إلى سؤاله وأنا أشعر أنني أتطفل عليه بشدة:

– هل هي سويدية؟ هل يوجد لديك فيلم " ساعة الذئب " لبرغمان، أم " سوناتا الخريف "؟ استدار مرة أخرى وغمزني ثم قال:

– كلا....

– هل لديك مسرحية هنريك أبسن "بيت الدمية" لقد صوروها على شريط فيديو منذ زمن بعيد.

استدار مرة ثالثة. لم يغمزني بل قال بجد:

– أنا لا أتاجر بتلك الأشياء.

– بماذا تتاجر؟

جمع نفسه وقال بشيء من الخجل:

– إنها أفلام جنسية، بورنو، ندعو العالم لتعلم الطوق السويدية في ممارسة الجنس.

الحمد لله أنني أقابل كثيرا من هذه النماذج. فمن أحد أعراض مرضي الضغط المنخفض، أما الآن فقد ارتفع إلى ما فوق العشرة. الحمد لله!. تربعت على الفراش ثم أعدت الكتاب إلى الحقيبة. قلت له وقد أصبحت بمحاذاته:

– قل لي من فضلك، لماذا تتفاخرون إلى هذا الحد بطرق زوجاتكم في ممارسة الجنس؟ لم يجب، بل تطلع في مليا، هل أسخر منه؟ لمّ أفلامه. دسّها في حقيبة رياضية، ثم أخفى الحقيبة تحت السرير. عرفت من حركته أنه لا يريد الكلام في هذا الموضوع.

اندس تحت الشرشف وطلب مني سيجارة. قدمتها له فورا ثم أشعلتها له بالكبريت. مضى وقت ونحن ندخن بصمت. كانت حركة الشارع قد خفتت ولم نعد نسمع سوى أصوات بعض المارة أو صوت محرك شاحنة خفيفة.

سألته وأنا أريد كسر الصمت:

– هل زعلت مني؟.

لم يجب فتابعت أقول:

– أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا تقوم حضارتكم بتصوير هذه الأفلام وتصديرها إلى العالم الثالث الذي انتسب أنا إليه. لا أستطيع فهم ذلك. هل هو لمجرد الإثارة؟. ولماذا تدفعون إنسان قرن العشرين للإثارة بهذه الواسطة؟ هنالك وسيلة أكثر أصالة لذلك.

انتبه لجملتي الأخيرة. استدار إلي وابتسم:

– ماذا تعني؟

قلت متحمسا بعد أن لفتّ انتباهه إلى فلسفتي:

– نحن نعلم أن الجنس هو عملية ذهنية بحتة. إنه تخييل، خيال، إنه حلم وحلم يقظة، مثلا: هل تعلم أن الجنس محال إن كان الذهن مشغولا في أمور أخرى؟ حدث ذلك معي، كنت مع زوجي الثانية. كانت تجاهد من أجل المضاجعة بكل السبل، بينما كان فكري مشغولا في أمر بعيد عن الجنس بعد الأرض عن السماء، فقد

سمعت في اليوم نفسه خبر مقتل أرنستو تشي غيفارا في بوليفيا. ذلك الخبر هزني بعنف (كنت أحبه ولم أزل) رفض جسدي التجاوب مع زوجتي فنامت وهي خائبة.

– هذا شيء واقعي..

فقلت مسرعا قبل أن يضيع باقي الفكرة:

– حسنا، إنه واقعي بالفعل، ولكن يحدث العكس تماما في كثير من الأحيان. إنه ممارسة الجنس دون الزوجة أو الصديقة،. تجري عملية ذهنية، مضاجعة فكرية، في الأحلام هل عرفت ما أقصد؟ الاحتلام هو الحالة العكسية، إنه مضاجعة مائة بالمائة ولكن دون جسد المرأة. هنا الذهن يلعب دور المرأة والرجل على السواء. الذهن ينكح نفسه. المضاجعة موجودة ولكن الجسدين غير مجتمعين.

ضحك الرجل وخبط على كتفي بيده القوية. عاد إليه مزاجه نفسه الذي كان فيه عندما تحدث عن مارادونا.

أعجبته الفكرة رغم أنه لم يسلم أنها من اختراعي. قال إنه قرأ مثل ذلك في كتاب ما. قلت له لا بأس أنا لا أدعي أنني أنظّر وأخترع نظريات في " السيكسولوجيا " ولكن الفكرة لا بأس بها ومقنعة ولذلك أحملها وأدهش الناس بها. ضحك مرة أخرى. أخرج قنينة نبيذ أحمر وطني وقدمها لي. قلت له إنني أتناول بعض الأدوية لذلك سأتجرع جرعة واحدة فقط، وهكذا فعلت. أعدت له القنينة فراح يعب منها بجرعات سريعة. طلب مني أن أكمل لأنني لم أقل له كيف يمكن إجراء عملية الإثارة دون فيلم بورنو. أشعلت له سيجارة أخرى، وأشعلت لنفسي واحدة وقلت:

– ممكن إن قمنا بتنشيط الذاكرة.

– لنتذكر ماذا؟

– إن أية طريقة لتنشيط ذاكرة إنسان، لتذكر الدافع الجنسي الأول ، الدافع العفوي الاعتباطي. سمه الحيواني حتى، هي أسلم وسيلة للإثارة.

قال لي أنه لم يفهم ذلك فقلت:

– لنفترض أن عقولكم النيرة قد اخترعت حبة يتناولها الإنسان مع كوب من الماء فيحدث معه ما يلي:

تستيقظ الغريزة الحيوانية فيه، وينشط " العقل الفرويدي " الكامن في مكان ما من الذاكرة النائمة، ثم يحدث في ذهنه، وهو جالس على مقعده يدخن سيجارة مع فنجان من القهوة، ما يحدث له حينما يحتلم المراهق أثناء نومه، هو لا بد سيصل إلى الذروة وسيقذف كما يحصل للمراهق النائم أيضا.

اهتم الرجل بالموضوع وراح يسجل شيئا في دفتره. رحت أعب دخان سيجارتي بلذة عظيمة. ها أنذا أسرد نظريتي لإنسان أوروبي فيقوم بتسجيلها بشغف. انتهى من الكتابة ورفع رأسه. حك قذاله وضيق عينيه.

قلت له ماذا؟ قال لي ولكن لماذا كل هذا؟... فقلت وهو يشرع بالتدوين:

– لكل إنسان لحظاته الأولى السعيدة. البريئة والأصيلة، التي يروح من أجلها، يتنهد باقي عمره متحسرا على عدم عودتها. لكل إنسان قبلته الأولى، واللمسة الأولى ليد الحبيبة، والنظرة الأولى. لكل إنسان حضن عزيز جدا، ووجه مركون في زوايا الذاكرة بإهمال، ثم هناك اللمسة الجنسية لجسد الحبيب الأول. إنه شعور ابتدائي لا يمّحي، تبحث عنه بعد ذلك في كل الأجساد ولا تجده، إنه الأصل، إنه شعور " أميرة ".

قال ولمّا يرفع رأسه بعد:

– شعور ماذا؟

– لا عليك... لقد سميته هكذا. سمّه أنت شعور اليزابيت أو شعور تاتشر، لا يهم سمه ما شئت.

قال ممم... وبعد ذلك؟ فقلت:

– بالله عليك... أليست مثل هذه الإثارة هي الأفضل والأسعد والأكثر أصالة؟. أنهى تدوين ملاحظاته ثم جعل ينظر إلي. انتهى الموضوع. انتهت فكرتي. سألني وهو يقلب الصفحة:

– وبماذا توصي يا سنيور؟.

فقلت له وأنا أستلقي كي لا يطيل الحديث:

– أوصي بحرق هذه الأفلام، أو تصديرها إلى الولايات المتحدة الأميركية. اتركوا الشرق في حاله. لا تفسدوه. إنه يعيش منذ مئات السنين حسب نظريتي هذه!.(أرجو أن أضيف شيئا آخر. إن فيديريكو فلليني، وفي كل أفلامه، يعيش هاجس هذه الفكرة. فهو يقوم بتصوير امرأة مجنونة، قذرة، ممزقة الثياب تعيش على الشاطىء بمفردها، ربما قام بمضاجعتها كأول امرأة له، وهو ما يزال صبيا في الثالثة عشرة، لقاء بضع ليرات. طبعا لم أقل هذا الكلام لصديقي السويدي لأنني غفوت بعد ذلك).

جلست في مقعدي. وضعت حقيبتي الصغيرة في الشبكة التي فوقي، وعلبة سجائري في الشبكة التي أمامي.

كان جاري شابا جامعيا صموتا، بقي يحملق بالفضاء، عبر زجاج النافذة السميك دون أن يتعب. تعجبت لهذا الإصرار، وهذا الصبر على النظر إلى وهج الشمس دون أن يرف له جفن. من قال إن العرب لا

يتأملون؟. أحد أصدقائي قال إن العرب اعتنقوا الديانات السماوية كلها لأنهم كانوا يحملقون ويتأملون، خصوصا إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم. سماء دنيا العرب فيها نجوم أكثر من أي سماء أخرى، والأفق هنا فيه روحانية، جمال أكثر من أي أفق ني أية بقعة من هذا العالم. أنا أشبه العرب بالمكسيكيين.

كلا الشعبين يحترق بالشمس الحادة، ويسمع طنين الذباب، ويتثاءب حتى ينشق فمه. كلاهما اكتشف النفط، ثم راح يفلس. ولكن كلاهما يعيش في أصالة و شاعرية لا مثيل لهما.

تذكرت صديقي خوان، ذلك الهندي الرائع. لولاه لما أصبحت مهندسا. كنا قد حصلنا معا على الشهادة الثانوية بالدراسة المسائية. في أحد الأيام جاء إلي بعد أن حضر اجتماعا عاصفا في ساحة "ماجو" في قلب بوينس آيرس! بمناسبة ذكرى 17 أكتوبر، حيث ألقى الجنرال بيرون خطابا حماسيا دار حول الإصلاح البيروني ودور نقابات العمال. إيفيتا زوجة بيرون الشقراء كانت موجودة. عندما تتواجد هي تجعل الناس يهتفون باسمها فقط.

قال لي خوان إنه اقتنع من الجنرال أن على أبناء العمال أن يدرسوا في الجامعات، واقترح علي أن نتقدم لفحص القبول في كلية هندسة النسيج.. بعد أيام تقدمنا بأوراقنا فوافق المصنع على منحنا نصف منحة دراسية، وفي الخريف تم قبولنا في الجامعة وأصبحنا طالبين.

وفي عام 1936، أي بعد سقوط البيرونية بعام واحد، أصبحنا مهندسين.

حاولت أن أنام في " البولمان" ولكنني لم أستطع. كانت مفاصلي تؤلمني رغم أنه كان مريحا وسريعا ومكيفا. أخرجت أدويتي من حقيبتي ثم طلبت كوبا من الماء من مساعد السائق، فبلعت حبوبي الصغيرة والملوّنة.

انظر إلى ماذا أصبحت يا خوان... لو كنت حيا لتحدثنا عن ذلك مرة أخرى...

كم كنت ذكيا وعريقا يا خوان، كيف حدث وأصبحت المسألة في عروقي؟. ابتسمت بسخرية أم ضحكت استهزاء؟... لا أعلم. ولكن أحاديثنا الطويلة– أنا وهو– حول الأبيض والأحمر، في بيتنا الصغير والهادئ، بعد أن مات والدي (بصعقة كهربائية سببها النول الذي يعمل عليه) وتزوجت أختي الثانية وهاجرت مع زوجها إلى كندا، تجسدت فعلا في دمي أنا بشكل ساخر.

عانقته ثم مسحت له دمعتيه اللتين سالتا من عينيه السوداوين العميقتين. هل سترحل حقا يا خوان.. لم يعد لي أحد غيرك، ليس في هذا العالم من يفهمني مثلك فلماذا ترحل؟ قال وهو يمسح على شعري وكأنني شقيقه الصغير:

– يجب علي يا عبد الله... هل تريدهم أن يلتقطوني كالفأر من بيتي؟

قلت له لا، لا أريد، أنا أعرف ما يجري بشكل جيد، أنا أقدر ظرفك. هيا ارحل إن أردت!. جلسنا وقتها على جذع شجرة هرمة في طرف الغابة، بعد أن تركت سيارتي خارجها، قال لي: مازال الوقت مبكرا. ثم شكرني كإنسان صغير لأنني قمت بإيصاله إلى خارج المدينة.

جلسنا صامتين ومتلاصقين. ها هو البيروني العنيد قد أصبح ملاحقا، الأحمر أصبح أحمر جدا. (أنا بالمناسبة أكره اللون الأبيض. إنه لون الأسنان السليمة والوجوه المصابة بفقر الدم الناتج عن سوء التغذية، إنه لون المستشفيات وصداري الأطباء. إنه لون البيت الأبيض..).

بماذا يفكر خوان؟ ماذا يريد أن يقول لي؟ لعنة الله على الجنرالات. فتح فمه وهمس لي بصوته الهادئ:

– قد لا نلتقي بعد اليوم يا عبد الله... لا تقل لي شيئا، فأنا أعرف ما أفعل وما أقول. سأصعد إلى الجبال، إياك أن تلحق بي، فجبال "أكونكاغو " لا تتسع لكلينا لأن أحدنا فقط عليه أن يموت، أما الآخر فيجب أن يعيش ليتكلم. مصيبتنا نحن الحمر أننا لم نترك شاهدا متكلما، لم نترك لسانا مثقفا. أمريكا هذه شهدت غزوات الرجل الأبيض وأرضها تشربت الدم الأحمر حتى اصطبغت بلونه.

– أنا أعرف ذلك يا خوان، لماذا تقوله لي مرة أخرى؟.

– لأنك ستعرف سبب صعودي إلى الجبال. أنا لا أقول أن "الروح العظمى" تناديني فهذا هراء. إن من يناديني هي قبور موتانا التي فلحت، هي رقصات أجدادنا ووقع أقدام البوفالو، وأصائل أمريكا الحمراء. إنها أغانينا ووجوه أطفالنا المذبوحة.

آه... كيف نهض خوان... كيف غرس غصنا في الأرض الطرية وجعل يرقص حوله. خلع حذاءه، وراح يدب على الأرض كأنه يغرس أقدامه عميقا فيها. توقف ويداه ممدودتان إلى حيث جبال "أكونكاغو"، اليد الواحدة أبعد من الأخرى ثم غنى:

اصغ، قال، هناك من البعيد البوفالو قادمة،

هكذا هي أقواله، من البعيد قادمة،

إنها تمشي، تقف، إنها قادمة،

من البعيد البوفالو قادمة

توقف عن الغناء، وبقي على وقفته تلك، وكأن روح " الدب الأبيض " أو " القدم الكبيرة " أو " الدب الواقف زعيم البونكا " أو "الذئب الوحيد " أو " الثور الجالس، " أو " السكين المثلمة" أو " الغيمة الحمراء زعيم الأوغلالا الداكوتا " تلبسته.

الرجل الأبيض وطأ بقدمه الأرض. كان خجولا، مستحيا، خائفا. كان يريد السلام والغذاء والفراء وبناء المستوطنات. الإسبان والإنكليز والبرتغاليون... بنوا المستوطنات وعقدوا المعاهدات. الأرض للجميع. جاءوا بالسفن، في البداية سفينة كل شهر، ثم سفينتان ثم امتلأ الأفق بالسفن. نزل الرجل الأبيض من سفينته مغامرا خائفا حالما، أصفر اللون من التقيؤ، ثم ما لبث أن قلع الأشجار وابتنى المستوطنات والحصون. جلب معه المدافع والبنادق والخرز الأزرق. اختفت الغابات وتحولت الأرض إلى صحراء قاحلة. يا إلهي كيف يتكاثر الأبيض. إنه ينقسم إلى قسمين والقسمان يصبحان أربعة والأربعة ثمانية، والثمانية ستة عشر... وهكذا.

الأبيض المنقسم (المتكاثر) أصبح يغلي على الأرض. أصبح مستبدا. والأحمر المسكين محاصرا. إنه كالمريض يا عبد الله. الأبيض المتكاثر بالانقسام ، الوافد بالسفن. الجسم مريض، الأبيض يستبد. الأحمر يضعف ويذوي وينتهي. هل تعلم يا عبد الله كيف انتهت شعوب " التاينو والآروك والبوهاتان"؟ وقبائل الماهيكان والراريتان والأيروكوا والأوتادا وهنود التسيروكي والتشيكاسو والتشكوتو والمكريك ومئات الشعوب والقبائل الأخرى؟ في البلاد التي تسمى الآن الولايات المتحدة الأمريكية؟ عاد خوان إلى الرقص، دار حول الغصن كأنه يصارع السماء ويحتضن الأرض وأنا جالس على جذع الشجرة الهرمة مبهورا. الرقص سيمحو المرض. توقف، ركع أمامي وردد أقوال "ووفوكا" مسيح البايوتيه الأحمر:

– على الهنود جميعا أن يرقصوا في كل مكان، وأن يستمروا في الرقص. وسرعان ما ستأتي " الروح العظمى " مع الربيع القادم. وستعيد معها كل الطرائد البرية من كل الأنواع. ستصبح الطرائد موجودة بكثافة في كل مكان. سيُبعث الهنود الذين ماتوا من جديد. وسيكونون جميعا أقوياء كالشباب، إذ سيعود إليهم الشباب. سيرى العميان من الهنود العجائز النور ويعودون شبابا مرة أخرى ويستمتعون بأوقاتهم. وحين تأتي " الروح العظمى " بهذه الطريقة فإن على كل الهنود الذهاب إلى الجبال، بعيدا عن البيض، إلى الأعالي. عندها لن يستطيع البيض إيذاء الهنود. وحين يكون الهنود في الأعالي هناك، سيأتي طوفان كبير ويموت البيض جميعا غرقا. وبعد ذلك، ستنحسر المياه ولن يبقى سوى الهنود في كل مكان وكذلك الطرائد الكثيرة.

ثم يقول الساحر للهنود أن يرسلوا رسالة إلى كل الهنود حتى يستمروا في الرقص وسيأتي زمن طيب. أما الهنود الذين لا يرقصون ولا يؤمنون بهذا، فسيصبحون ضئيلي الحجم، بطول قدم واحد فقط، وسيبقون كذلك.

انتفض وراح يصدر بفمه أصوات دقات طبل مكتومة، ثم عاد إلى الرقص. اختلفت حركاته، أصبح يتحرك في الفضاء، وكأنه فعلا يسبح فيه. يداه وأصابعه، تتحرك وكأنها تلاحق دقات قلبه. أما أقدامه فلم تكن تلامس الأرض أبدا، ورأسه يلتوي ببطء شديد.

انتصب زغب جسدي. انتصبتُ. اقتربت من الغصن وبدأت أرقص. مثله تماما. أنا لم أرقص في حياتي كلها رقصة هندية، ولكنني في هذه اللحظة أحسست أن أعضائي تتحرك بذاتها دون أن أحركها، ودون أن أبذل جهدا، أصبحت أسبح في الفضاء الخارجي.

لم يعد هناك شيء مسطح، وانتفت إلى الأبد الأشكال المألوفة وقوانين الهندسة. والتقطت أذناي دويا هائلا يتردد في فضاء القبة الذي أسبح فيه. وفجأة سمعت غناء امرأة هندية. فهمت كلماتها جيدا وكأنني هندي منذ مولدي:

انظر إلى ذلك الشاب

إنه يشعر بالسعادة

لأن حبيبته تنظر إليه.

وطال الرقص. طال وجاري الذي كان يتأمل الأرض الصفراء العاكسة للوهج، يغرس فيّ نظراته بدهشة. طال حتى أزفت ساعة رحيل خوان، فتوقفنا، ثم قبل بعضنا بعضا ورحل.

رحل خوان إلى الجبال. رقص رقصته ورحل. من يرقص هذه الأيام؟ كنت أشاهد الأفريقيين من "السوابو" يرقصون في مدن وقرى بريتوريا، وعلى شاشة التلفزيون. كنت كلما شاهدتهم أتذكر رقصة خوان ورقصتي في تلك الغابة النائمة في السهول المقابلة لجبال "أكونكاغو". الساندينيون أيضا يرقصون والفلسطينيون واللبنانيون والسوريون (عرض التلفزيون شريطا من بيروت أثناء حصار 1982، كان المحاربون يرقصون فيه بابتهاج).

كم أحب الرقص، وكان غارسيا لوركا يحب الرقص في حينه أيضا. علمت أن لوركا كان معجبا بالراقصة الأرجنتينية (أنطونيا ميرسي).

(أنطونيا ميرسي) تلك الراقصة التي كانت ترقص مثل خوان. كان لوركا معجبا بها. كان معجبا بحركات أصابعها التي كانت تعزف لحنا صامتا في الفضاء. نفس الشيء كانت الراقصة الفرنسية " إيزادورا دانكان " التي رقصت للحب والغضب والخوف ورقصت للناس العاديين. أنطونيا ميرسي وإيزاودرا دانكان وصديقي خوان وأنا (عبد الله المشحْور) وألوف الرجال المقهورين، رقصنا في تلك الغابة النائمة حين كنت أودع خوان الذي قرر الصعود إلى الجبال وحمل البندقية.

كم هو جميل أن يرقص الإنسان في الشارع. كم أحسد البرازيليين والمكسيكيين والزنوج والأفريقيين واللبنانيين. كم أحب أن أستمر الآن في الرقص، في البولمان المسافر إلى الشمال بجوار ذلك المتأمل الذي يسعى جاهدا للالتصاق بالنافذة والابتعاد عني. أنا أعلم أنه جفل لحركاتي، كان علي ألا أرقص على مقعدي، فنحن في بولمان ولسنا في شارع من شوارع "كيب تاون". الذنب ذنبي، فقد يحسبني مجنونا مسافرا إلى الشمال. أو على الأقل أهبل أو معتوها. إنه لا يعلم شيئا بعد عن قبائل "الأباتشي" التي لم يبق منها الآن، في أمريكا، ولا فرد واحد. صحيح أنني لم أجد الناس هنا في الوطن يرقصون في الشوارع، ولكنني متأكد أنهم يرقصون الآن في مكان ما بعيدا عن أعين المتطفلين. لن أكتب مائة صفحة عن الرقص، فكتابي هذا ليس في هذا الفن، رغم أن كتابة هذا العدد من الصفحات عن هذا الموضوع يعتبر شيئا صعبا بالنسبة إلي على الأقل. أنا لست راقصا، بل محب للرقص. والرقص أنواع. هناك الرقص الذي كانت أمي ترقصه لأبي حينما كنا

أطفالا. كنت في الرابعة أو في الخامسة عندما كنت أنام مع أختيّ في غرفة أخرى في ذلك البيت ذي المربع. كان أبي حينئذ (كما ذكرت) يتعرض لأزمات هائلة. كان يفلس أو كان قد أفلس وانتهى، وكانت مهمة أمي أن تنسيه خرابه الاقتصادي. في إحدى الليالي استيقظت من الحر الشديد. شربت كوبا من الماء ثم هممت بالعودة للاستلقاء ولكنني لم أعد ولم أستلق. كانت أمي قد خلعت فستانها وبقيت بقميصها الداخلي "البرباتوز" (فعلت ذلك بسبب الحر الشديد فيما أظن!) أقول إنها كانت ترقص أمام أبي. كانت تحرك يديها ورجليها وخصرها. وقفتُ أمام النافذة ورحت أراقبها مبتسما. والدي أيضا كان يبتسم، ثم جعل يفقش بأصابعه لها وهذه هي المرة الأولى التي شاهدته فيها مبتسما. أمي هي الوحيدة التي كانت تجبره بطرقها الخاصة على الابتسام. نعود إلى تصنيفاتنا. هذا النوع من الرقص لا أقصده، رغم أن الناس أحرار في أن يرقّصوا زوجاتهم بهذه الطريقة أم تلك. إن هذا الرقص هو دعوة المرأة للرجل، إنها طريقة المرأة لجعل الرجل (يبتسم) أو يفقد عقله.

النوع الثاني للرقص، هو الرقص الطقسي. رقص خوان، رقص دانكان وميرسي. فيه تشعر بكل أنواع الشعور سواء كان شعور الحب أو البغضاء، شعور السلام أو الحرب، أو أي شعور قد يخطر ببالك. خوان احتاج للقيام بذلك، وأنا أحتاجه أيضا. هذا هو النوع الذي أقصده. هذا الذي قمت بحركاته دون أن أشعر بشيء وأنا جالس في مقعدي في البولمان إلى جانب ابن وطني.

في هذا الرقص يكفي أن تتوفر المشاعر، يكفي أن يكون لديك إحساس ومشكلة مصيرية. بدونها لا يمكن أن تكون راقصا وهذا مثل أن تشعر بالقهر أو أن تشعر أنك ستموت لا محالة. عندها يكفي أن تقوم بالحركة الأولى وهذا كافٍ لتنطلق الحركات، بعدها وبذاتها دون أن تتدخل أنت (يا للعجب، نفس هذا الكلام قالته ايزادورا دانكان في كتابها "حياتي" عندما كانت تتحدث عن بداياتها الأولى).

رواية

السرطان

نهاد سيريس

2

مات أبي. مات ميتة تكنولوجية. في الماضي كان مغرما بالنول اليدوي. كم كان يحبه، وأنا كنت أحبه أيضا. لا يوجد شيء أجمل من مراقبة عامل النول اليدوي وهو يعمل. هذه الأشياء مازالت محفورة في ذهني، لا يمكن محوها أبدا إلا بموتي. طقطقة النول، وأزيز حلقة البئر وأنا أسحب قادوسا مليئا بالماء، وأصوات المؤذنين في ليالي الجمعة، وزغاريد النساء، ودفء شقف الفحم، وأهازيج الأولاد في الكتّاب حينما يختمون "جزء عمّ " ويصلون إلى سورة تبت يدا أبي لهب:

تبت يدا ، جيب الغدا، دق الباب، ما في حدا.

تبت يدا، جيب الغدا، دق الباب، ما في حدا.

كانت الآلة قد توقفت ، استل مفتاحا وركع يعبث بأحشائها. وفجأة توهجت شرارة بشدة فأمسكت الآلة به بقوة حتى ازرق وتخثر دمه. مات عبد النبي. قتله النول الآلي. لماذا أتيت بنا إلى هنا يا والدي؟ كنا في بلدنا سعداء، تعمل على أنوال لا ضجيج لها ولا كهرباء. النول اليدوي لا يقتل بل يقيم ألفة بينك وبينه. يقولون إنه يصيب الإنسان بتشوه في ظهره فتظهر له حدبة فيه. هذا هراء. كم يكذبون على هذا النول المسكين، الذي ما عتم يطقطق في أذني حتى الآن. مات أبي في الوردية الليلية. كان قد انتقل من الوردية الصباحية بعد أن أصبحت أعمل فيها كمهندس.

قال لي: يا عبد الله أنا أبوك. لا أريد أن تصبح رئيسي في العمل. قد يفهم البعض أنك تسهل لي العمل. لا أريد أن أسيء إليك. مات بعد ذلك بستة أشهر فأصبحت أدخن بحرية في البيت ثم طلقت زوجتي الأولى.

كرع خوان الزجاجة السابعة عشرة ثم مسح عن فمه رغوة البيرة بيده وقال:

– إذن أنت تريد أن تتزوج مرة أخرى، آ؟ ولماذا؟ ابق مثلي!.

قلت له وأنا أحس بخدر الكحول في جسمي:

– أنت هندي مصاب بداء العزوبية يا خوان، أما أنا فإنني عربي مصاب بداء الزواجية. لن استمع إليك!. داؤك غير دائي.

– أنت حر، ولكن أريد أن أفهم شيئا واحدا.

– ما هو يا خوان؟.

– لماذا تصر، بهذا الشكل، على بقائك متزوجا وأنت مقطوع النسل؟

نعم، أنا رجل مقطوع النسل. أملك خصيتين ولكنهما معطوبتان. أنا سيئ الحظ، أحب الأطفال ولكنني غير مؤهل لإنتاجهم، فخصيتاي، كما اكتشفوا ذلك بالتحاليل، تتدليان كالأجراس المعلقة في أعناق الأغنام دون فائدة. تقرعان دون صوت، وهذا ما سبب عراكا مستمرا بيني وبين زوجتي الأولى. همست لي في إحدى الليالي بعد أن قذفت فيها هواء:

– أريد طفلا يا عبد الله...

– انسي ذلك، فأنا لا أستطيع...

– ولكنني أحب الأطفال، أشتهي أن أكون أما. طفل واحد أرجوك!.

– وكيف ذلك يا أندروميتا؟ أنت تعلمين أنني لا أستطيع، لقد قرأت التحاليل بنفسك. كتبوا أنني أستطيع فعل أي شيء ماعدا الأطفال.

صمتت المرأة قليلا وكأنها اقتنعت. كنت سأغفو من تأثير النشوة إلا أن ابنة الحرام قالت لي بخجل عذري:

– عندي حل.

– ما هو؟.

– لا أريدك أن ترفض!.

– أريد أن أعرف ما هو أولا.

– حسن... أنت تعرف عشيقي القديم الذي كنت أخرج معه قبل أن أتزوجك... إنه متزوج الآن وعنده ثلاثة أطفال، صبيان وبنت.

– نعم أعرفه، لعنة الله عليه كيف تذكرينني به. ماذا تريدين؟ هل ستطلبين منه واحدا من أطفاله، هل تعتبرين الأطفال الثلاثة كثيرين عليه؟... أنا أعرف شخصا في الوطن تزوج أربع نساء ولدت له ثمانية وأربعين طفلا ويقول " قليل لسه ". برقت عيناها وهي تقول:

– أنا لا أقصد ذلك، بل أقصد أن أنام معه في السر.

ها... ها... رجل محترم يحمل على رأسه قرنين. ذو القرنين... ذو... نساء الغرب لا يستحين. آه يا بلدي كم أفتقدك، لعنة الله على أبي كيف لم يطلب من أميرة السفر معنا إلى الأرجنتين. كنت سأتزوجها. كنا سنعيش كعصفورين متناغمين، دون أن أشعر بشيئين على رأسي. تصوروا ذلك، تصور ذلك يا عبد الله. أنت وأميرة تتصافحان وعلى يديكما محرمة نظيفة ورجل دين يتلو سنن النكاح هكذا دون موارية وبالألفاظ الصريحة، فتستحي الفتاة ويحمر وجهها عندما يطلب منا أن نتناكح.

" إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه... " وإلا عم الفساد الأرض.

فكرة عظيمة... رائعة. الدافع الأول للزواج هو الرضى، هو الحب، والصفة الأساسية هي التدين، هي أن يكون الشاب شخصا يؤمن بشيء، يؤمن ويخلص. والإيمان بشيء يعني أن تؤمن بدين أو عقيدة أو إيديولوجيا ما.. أنت حر (أنا رجل ديموقراطي جدا كما ترون) أما الصفة الثانية فهي الإخلاص. بالله عليكم... أريد أن أسألكم أليس الشرق عظيما؟.

أحمد لله على أنني عائد كي أعيش أيامي الأخيرة في هذا الجو العظيم.

رفضت طبعا، وحتى لو كنا معا في هذه الأيام حيث يستولدون الأطفال في الأنابيب لرفضت أيضا. ألا يكفي أنني عشت خمسا وأربعين سنة في أنبوب اختبار، حتى يأتيني طفل أنبتوه في أحد المخابر التكنولوجية بعد تلقيح بويضة زوجتي بحيوان منوي لذاك الحيوان، الذي كان عشيقها يوما ما، استحضره بواسطة الاستمناء في مراحيض المختبر؟.

طلقتها الملعونة. ما أن مات أبي حتى طلقتها (كان والدي يرفض بدافع شرقي) أرجوكم ألا تذكروا لي اسمها مرة أخرى، كانت كابوسا، مثل الكابوس الذي كان يأتيني في المنام عن الأساطيل الأمريكية ومشاهد الشنق في الجادة السابعة بنيويورك. لم أستمع لنصيحة صديقي خوان في المشرب بعد أن شرب اثنتين وعشرين قنينة .

– يا عبد الله، ابتعد عن "إيمانويلا " لا يمكن أن تكون زوجتك الثانية. ليس لها مواصفات الزوجة الثانية.

– لماذا؟

– لأنها سكرتيرة المدير. تدق على الآلة الكاتبة. غدا ستدق على رأسك... قلت له، ولساني ثقيل جدا، بثقل مطرقة:

– لن تفعل معي شيئا. أستطيع أن أدقها كالمسمار في الحائط. ثم أنها أخبرتني في الغابة وهي تعيد ارتداء لباسها الداخلي الحريري، أنها تحبني وأنها لا تريد أن تحبل كي لا تتغير هيئتها.

نهض خوان وراح يتمايل في جو المشرب المدخن. ماذا حدث له، إنه لم يشرب سوى اثنتين وعشرين قنينة.

اقترب من أذني وكأنه يريد أن يقبلها. لم يقبلها بل همس لي ولكن بصوت عال:

– اذهب معها إلى الجحيم يا عبد الله. لن تمكث معك سوى سنة واحدة ثم ستطلب الانفصال. أنا أعرفك جيدا، فأنت لا تستطيع أن تلعب دور الزوج المخدوع، كما أنك لست انتهازيا. إنها عشيقة المدير يا صديقي.

اللعنة على خوان. في بعض الأحيان ألعنه رغم أنني أحبه. كان سكران، هذا هو كل شيء. والحمد لله أنني كنت سكران أيضا، وإلا كيف أفسّر نسياني لقوله هذا في الصباح التالي؟. أنا أملك رأيا خاصا حول الزواج والحياة الأسروية كسبته في الوطن ومن أبي المرحوم. صحيح أن خوان لم يستسغ فكرة العيش في بيت مع زوجة أو ضمن أسرة، لأسباب تعود إليه شخصيا، إلا أنني لا أستطيع تصور نفسي دون زواج رغم أن زوجتي الثانية كانت سترضى أن تكون مجرد صديقة حميمة إن أنا عرضت عليها ذلك بدلا من الزواج. ورأيي يتلخص في جملة واحدة: على الرجل أن يتزوج لينتهي من مشكلة الجنس فيتفرغ لأمور أخرى.

إلا أن زوجتي الثانية لم تمنحني الفرصة كي أتفرغ لهذه الأمور الأخرى، فسرعان ما طلقتها لأسباب أخجل من ذكرها. إذ أنني إن ذكرتها فسوف تسخرون مني وتحسبونني مغفلا أو أعمى أو عنينا أو مسكينا. وأنا (وتعرفون ذلك جيدا) لست من ذلك كله.

طلقتها بعد ستة أشهر، أي قبل مرور سنة كاملة على زواجنا كما تنبأ بذلك خوان.

– هيا قل لنا يا عبد الله لماذا طلقتها!.

– لن أقول!.

– أرجوك

– لن أقول!.

– وهل كانت هي أيضا زوجة تكنولوجية؟.

قدمت لجاري الذي كان يتطلع إليّ خفية، سيجارة إلا أنه رفضها. أشعلت لنفسي واحدة وقلت له:

– حسنا سوف أقول لك.

– ماذا؟.

– سوف أقول لك لماذا طلقت زوجتي الثانية.

هز رأسه مرات عديدة وهو يلتصق أكثر بنافذة البولمان ويتعرق. قلت له:

– كانت زوجتي بيضاء شقراء بعيون زرق. كانت شيئا نفيسا. تفعل الحب كما لو أنها تبدعه. هل تعلم كيف تبدع المرأة الحب؟ تهز رأسك إنك لا تعلم... حسنا. إنها بصدق تمثل، أو ربما لا تمثل، بل تعيشه وتنفعل. إنها تتحرك على مساحة السرير كلها وفي كثير من الأحيان تجرني إلى أرض الغرفة، وفي بعض المرات وجدنا أنفسنا في الممر أو في الحمام أو عند باب الشقة، أو في البلكون وبعض المراهقين في البناية الأخرى يتفرجون علينا. إنها قطعة نار. كانت كذلك، فقد ماتت في إحدى الشقق المفروشة مع مدير مصنعنا بعد أن طلقتها بثلاث سنوات. هل تعلم كيف ماتت؟... أيضا تهز رأسك إنك لا تعلم، حسنا، بينما كانا يفعلان الحب في شقة المدير المفروشة والسرية، طق عرق في رأسها بسبب شدة الشهوة واللذة والانفعال. ماتت من فورها، ماتت وهي في انبساط تام، في ذروته. ماذا حدث؟ لماذا احمر وجهك؟. لقد كتبت الصحف عن ذلك وحدثت فضيحة كبيرة بحق المدير الذي استقال أو أقالوه ثم قذف بنفسه من الطابق السابع حيث كان يسكن.

هل فهمت إذن لماذا طلقتها؟... لقد جعلتني أكره الجنس بعد شهر واحد.

هزّ الرجل رأسه للمرة الثالثة، ثم استدار دون أن ينطق بحرف واحد، وعاد يحملق في الأرض الجرداء المتوهجة. ماذا... هل أسأت له؟ هل يعتبرني مجنونا؟ إنني في كل حال لا أختلق شيئا. ولماذا أختلق أحداثا وهمية؟ فأنا أعرف نفسي جيدا، أنا عبد الله المشحور العائد من الأرجنتين إلى الوطن ليعيش فيه أيامه المائة الأخيرة كما يحلو له، أو كما يعيش سائر أبناء وطنه.

إذن أنا لست مجنونا، لست كبطل رواية " الرعن " لرشيد بو جدره الذي تعرض لضربة شمس فراح يخلط بين الواقع والخيال وبين ما حدث له وما يحسب أنه حدث له. أنا لم أتعرض لضربة شمس، بل كل ما هنالك أنهم اكتشفوا اصفرارا في وجهي فقاموا بتحليل عينات كثيرة من دمي فوجدوا أنني سأموت بعد مائة يوم. هكذا قال لهم السنيور كومب، وهذا ما قاموا بإخباري به لأنني رجل عاقل ووحيد. قلت لهم إنني وحيد ليس لي قريب (كذبت عليهم فلم أخبرهم أن لي صهرا أصلع ترمل بعد موت أختي) ليهمسوا في أذنه أنني سأموت بعد مائة يوم بناء على حسابات السنيور كومب وهو بصراحة كومبيوتر المستشفى الملكي في بوينس آيرس.

أنا لست مجنونا... وكيف يصير إلى مجنون من يقرر أن يرفض طرق الموت في الغرب ويعود إلى وطنه ليموت بين ناسه الطيبين ثم ليحملوه على الأكتاف إلى المقبرة وهم يذرفون الدموع عليه ويشربون عرق السوس على روحه؟. هراء. ومن قال ذلك؟ من يحسب أنني مجنون... هل هو جاري في البولمان؟. لا يبدو عليه ذلك رغم أنه يتحسب مني باستمرار.

تركت جاري في حاله يتأمل الأرض المتوهجة المسرعة إلى الخلف، ثم حركت عتلة المقعد فانبسط قليلا. أصلحت جلستي ثم أغمضت عيني محاولا النوم.

النوم شيء جميل لمن هو في حالتي. فأنا أبلع كل يوم أربعا وعشرين حبة من أنواع مختلفة. منها، طبعا، مهدئات قوية، وهذه المهدئات تجعلني في حالة نعاس واستقلابات ذهنية (ما معنى هذا الكلام؟ الطبيب الذي وصف لي الدواء قال لي ذلك) النعاس مفهوم، أما الاستقلابات الذهنية فهذه غير مفهومة. وأنا، كي لا أقع في خطأ فظيع، أعتبر أن مثل هذه الاستقلابات غير موجودة في عقلي بتاتا.

– ماذا تفعل هنا ياخوان؟ حسبتك قد مت في جبال " أكونكاغو"، ماذا تفعل هنا؟ كيف عدت؟ كتبوا ذلك في الصحف. حدث ذلك بعد سنوات عدة من صعودك إلى الجبال. كتبوا أن قوات الجيش هاجمت قرية صغيرة نابتة على أحد سفوح الجبال. هناك قامت فصائل الجيش وعلى حين غرة بدخول القرية وتفتيشها. حدث قتال مع بعض الثوار المتمترسين في البيوت الباقيات.

وبعد يومين كان الثوار قد قتلوا. نشرت الجريدة أسماء بعض القتلى وصورهم، كان تحت صورتك اسم آخر غير اسمك أما تحت صورة ثائر ثان فقد كان اسمك مطبوعا بأحرف متوسطة. إنهم حتى يخطئون بهذه السذاجة. أما بالنسبة إليَّ فقد كان الأمر واضحا. مات خوان، قتلته فصائل الدم البيضاء، قتلته بعد أن رقص رقصة الحرب المشهورة تلك، ورقصتها معه. يا لها من رقصة، كيف نسيت نفسي. غاب شعوري، وأصبحت أسبح في الفضاء دون جاذبية أرضية وببطء شديد... لا أرى شيئا سوى شريط سينمائي يعرض أمام عيني صور أجساد بشرية مشرومة الأعناق ومبقورة البطون. صور أصدقائي الهنود وهم يهربون دون جدوى. صور خيامهم المخروطية الملونة وهي تلتهب وألسنة النار تتصاعد إلى السماء الملتهبة بلون الأصيل الأحمر.

كان خوان صامتا متجهما. كان صخرة قاسية لا تتغير ملامحها... كان يتحوّل دون أن يحول عينيه عني إلى كرة حمراء هلامية، راحت تتحرك وتموج في الوسط، أما القشرة فكانت قاسية لا تتبدل. تحركت الكرة، سارت في خط مستقيم كأنها تسبح في نهر عظيم. ثم جاءت كرة أخرى، وأخرى... وأخرى... حتى أصبح النهر أحمر بكراته المتموجة في الوسط. ملايين الكرات التي تسبح بانتظام وسعادة. كان جوف كرة خوان يتموج كأنه يرقص رقصته الأبدية. يتموج كأنه يشير إليَّ أو يدعوني إليه. يا خوان... يا خوان ما هذا؟ كم أنت سعيد، كيف تلعب في جوفك ومع الكرات الأخرى. هل تغيَّر العالم يا خوان؟ اجعلني كرة حمراء مثلك... اجعلي يا خوان. وانساب النهر العظيم الأحمر تحت قرص برتقالي اللون، لامع يبشِّر بسعادة عظيمة. وبهدوء أيضا راحت الكرات تتقافز وتثب باتجاه القمر. ثم أصبحت تسبح في الفضاء فملأته بلونها المتكوِّر، وما عتم أن أصبح الفضاء مسرحا للكرات والقمر. مسرحا لكريات حمر متحركة بانسياب ومتداخلة بعضها ببعض. وفجأة... راحت تصعد من الأسفل كرات بيض غير متموجة. كرات بيض صغيرة، لا تعرف الانسياب واللعب. صغيرة، نهمة، متدافعة. تزيح كرة حمراء لتأخذ مكانها. تتكاثر بسرعة هائلة. تتكاثر بالانقسام. المائة تصبح عشرة آلاف. وعشرة آلاف كرة حمراء تصبح مائة. تموت في مكانها، من الزحام والصلابة، آه ياخوان أين كرتك. بحثت عنه في كل مكان. وجدته بجانب القمر محتمياً به. ينظر إلى كراته الأليفة وجوفه لا يتحرك. يبكي، يغني، تهطل دموعه من عينيه وتتجمع في كرته فتتضخم حتى تكاد تنفجر. ويتحول الفضاء الأحمر إلى فضاء أبيض، باهر للعينين، حتى يغمضهما، فيعم الظلام ويختفي القمر وخوان وكرته.

ليس أمامك سوى الرقص يا عبد الله. لوكيميا بيضاء تنهش عظامك حتى النخاع. في الماضي رقص خوان. هو أيضا وأهله وقبيلته أصيبوا باللوكيميا البيضاء الماحقة. "ووفوكا " مسيح البايوتيه الأحمر يطلب منك أن ترقص أنت أيضا. ارقص كي لا تصير إلى مسخ بطول قدم واحد، فيركلونك بأقدامهم إلى حفرة صغيرة هي مقامك الأبدي. ارقص ثم اصعد إلى الجبال يا خوان. ارقص ثم اذهب إلى وطنك يا عبد الله. لا شأن لك في السهل التكنولوجي، ارحل إلى حيث عليك أن تصعد. إلى مربعك ذي الطاقة فتقف على صندوق

خشبي عتيق وتدس رأسك وكتفيك فيها ثم تبحث عن صبي في الخامسة عشرة ينحني على جسد مكتنز لفتاة فاحمة الشعر والعينين يتلمسه بيدين راجفتين.

توقف البولمان. سمعت رجلا يهنئ الآخرين بالوصول بسلامة. رد عليه الآخرون بالشيء ذاته، ثم حدثت جلبة تنذر فعلا بالوصول.

هذه هي إذن مدينتي الشمالية. ألقيت نظرة إلى الخارج. كانت المحطة مزدحمة بباصات البولمان المستوردة. نقر جارى على كتفي بلطف شديد ثم جذب يده وكأنني لسعته. حسنا. التقطت حقيبتي وعلبة دخاني ثم ابتسمت له. سرت في الممر ببطء حتى نزلت الدرجات الثلاث إلى الإسفلت المائع.

استلمت حقيبتي ذات العجلات وحملتها إلى الظل. شاهدت جاري يرقبني وهو يبتعد. إنه رجل طيب. يبدو عليه ذلك. أشرت إليه بيدي أودعه. لم يرفع يده بل اختفى بسرعة في المنعطف...

يغلي كل شيء في وطني في شهر تموز. حتى الإسفلت. درجة الحرارة تقارب الأربعين درجة ونيف وأنا أرتدي بدلة كاملة بربطة عنق. أصبح العرق يسيل تحت إبطي في بادئ الأمر، ثم على وجهي وظهري وخصيتيَّ المعطوبتين. بقيت واقفا هكذا لا أعرف ماذا أفعل. اللعنة عليك يا عبد الله كيف لم تضع خطة. قضيت أيامك في التفلسف والكلام الفارغ. كان عليَّ أن أسجل ماذا عليَّ أن أفعل، إلى أين يجب أن أذهب. من يجب أن أزور؟ كل شيء. كان علي أن أخطط لكل شيء. التقطت حقيبتي من على الأرض فالتسعت يداي. شمس تموز تحرق كل شيء. الحمد لله أنني وجدت ظلا صغيرا أحمي به رأسي. حملتهما رغم ذلك ومشيت، عليَّ أن أخرج من المحطة حيث باصات البولمان والناس الراكضون والمتدافعون. هذه هي آخر محطة أخرج منها في حياتي.

أوقفت تاكسيا وأنا أنفخ. ماذا عليَّ أن أفعل؟. أصابتني الحيرة، لم ينزل الرجل ليأخذ الحقائب. فتحت الباب الأمامي ورضعت حقيبتي الكبيرة إلى جانب السائق لأجلس أنا في الخلف. صاح مغضبا وكأنني أهنته:

– ضع الحقيبة في الخلف واجلس أنت هنا...

أذعنت له. قلت حاضر ياسنيور، حملت الحقيبة إلى المقعد الخلفي وجلست أنا في المقعد الأمامي. سألني إلى أين؟ قلت له: إلى الفندق فسألني وقد فقد صبره:

- أي فندق؟

فكرت قليلا. لقد نسيت أن أحجز من العاصمة. يا لي من أهبل. ماذا أفعل، فأنا لا أعرف أسماء الفنادق الجيدة. قلت له بصوت خافت:

– إلى أي فندق من الدرجة الجيدة!...

انطلق وكأنه يشارك في رالي " سان ريمو". مرق بسرعة بين مئات السيارات والدراجات والمترجلين.

اضطررت أن أتشبث بالمقعد لكثرة ما كان يتوقف بسرعة وينطلق بسرعة أيضا.

يا له من ابن حرام... شتمته في سري، وما عتم أن شتم بدوره سائقا آخر. رد الآخر بشتيمة تخص الأم والأخت بشكل فاضح. لم يتوقف سائقي ليتعارك معه، فقد كان ذا عقل راجح. اكتفى فقط بالدوس على البنزين.

بعد دقيقة ونصف فقط توقف بسرعة البرق وجعل يستعجلني كي أنزل، نزلت وأنزلت حقيبتي. أخذ خمسا وعشرين ليرة لقاء ما فعل.

بحثت عن الفندق فوجدت أنني أقف أمام مدخله. فندق جيد بثلاث نجوم. فتحت الباب بيد وأدخلت الحقيبة ذات العجلات بيد أخرى. هبت عليَّ نسمة باردة من الصالة الصغيرة. المكيف يعمل، والصالة مبردة. أية نعمة هذه؟... أعطوني، ويا للعجب غرفة. توقعت أن لا أجد سريراً فارغا. سألت إن كان هناك مكيف في الغرفة فهزت الموظفة رأسها إيجابا. تطلعت إلى الجالسين في الصالة ريثما تنتهي من إجراء اللازم. كان هناك سائحان أوروبيان غاطسان في مقعديهما يتمتعان بالمكيف. رجل طويل جدا ورجل قصير جدا.

أما الآخرون فهم من السياح العرب. يبدو أن السياح العرب يتمتعون ببرودة المكيف أكثر من الأوروبيين ولكن الجميع كانوا جالسين بملل وكسل جعلاهم لا يقوون على تغيير اتجاه أنظارهم، فقد كانوا يغرسون فيّ نظراتهم وكأنني " صوفيا لورين " أو " بروك شيلدز " أو " هنري كيسنجر ".

من أين وقعت عليهم كي يتسلوا بالنظر إليَّ؟ ألا يوجد في هذا البلد شيء مثير أكثر؟ أم أن ما يفعلونه هو من تأثير " الجنرال إليكتريك "؟.

– الغرفة 747.

وبلحظة نبق شاب ذو بدلة حمراء والتقط الحقيبة، الحمد لله أني وجدت أخيرا من يحمل لي حقيبتي، فمفاصلي تؤلمني وأشعر بوهن عظيم في جسمي (لن أقلق على نفسي، فهذه هي عوارض مرضي، ولست مصابا بالروماتيزم). وأحمد الله أيضا أنني سأسافر في رحلتي الأخيرة دون حقائب أو متاع.

صعدنا بالمصعد إلى الطابق السابع. الغرفة رقم 747. غرفتي وطائرة الجامبو التي سافرت عليها تشتركان بالرقم ذاته. فتح الباب ثم أفسح لي المجال، ثم سلمني المفتاح ووقف ينتظر.

غرفة جميلة بسريرين، بأرضية من الموكيت الأصفر العتيق. الستائر مسدلة والشمس تسطع عليها بقوة. الشراشف نظيفة وممسدة. هدوء ساحر وجو خانق بفعل الحرارة المرتفعة. نظرت إلى الحمام، كل شيء يفوح برائحة المطهر النفاذة. قطعة صغيرة من الصابون الوردي، وبكرة من ورق التواليت. (بالمناسبة أنا أحب اللحظة الأولى لدخولي غرف الفنادق. لا أعرف لماذا ولكن يبدو لي أنني أنسل إلى عالم جديد ومطهر. عالم ممسد ونظيف. هذا الشعور أحس به في اللحظات الأولى قبل أن أخلع حذائي وجوربي وأنكش حقيبتي وأستخدم السرير والتواليت). انتبهت إلى وجود الشاب ذي البدلة الحمراء، يا لي من مغفل كبير. كم أنا قليل

ذوق... مددت يدي إلى جيبي وأعطيته ورقة بنكنوت من فئة الخمس ليرات. قال تانكيو مستر... ثم غاب بخفة.

أفرجت الستائر فانهمرت أشعة الشمس قوية ولاسعة. أعدت الستائر إلى مكانها وقد أصابني غشى في عينيَّ. أدرت زر المكيف، فلم يعمل. أعدت الكرة فلم يعمل أيضا. يحرق...! المكيف عطلان. تأكدت من وجود التيار فسطع المصباح. أطفأت المصباح لتخفيف الحرارة. أعدت إدارة زر المكيف ثم خبطت عليه بقبضتي فبدأ يهدر مصدرا صوتا ناعما وهواء باردا. خلعت من فوري بدلتي الرطبة وقميصي المشبع بعرقي. فعلت ذلك كي لا أصاب فعلا بالروماتيزم. أخذت دوشا ثم نزلت إلى المطعم لتناول طعام الغداء.

عندما عدت وجدت المكيف وقد تعطل. خبطته بقبضتي خمس خبطات دون فائدة. حرنت " جنرال الكتريك " تلك الشركة التي تشترك في صناعة القنابل الذرية والنيترونية وصواريخ كروز وحرب النجوم ومكيفات هواء الصحراء العربية. أخذت التلفون واتصلت بالسرفيس. وعدوني أن يرسلوا إليَّ من يقوم بإصلاحه. اطمأن قلبي لذلك ففتحت النافذة ثم استلقيت وحاولت أن أنام وسط ضجيج السيارات والزمامير. ها أنذا في الوطن. في المدينة التي عشت أحلى ربع عمري. المكان الذي أطر طباعي وحفر ذكرياتي. كم هو جميل أن أعود لأسير في نفس الطرقات، ولأستظل تحت ظلال نفس الجدران وأن أعيش من جديد تلك اللحظات المطبوعة في الطرف القصي من رأسي.

حاولت التذكر دون جدوى. ماذا حصل لي؟ منذ ساعة كنت أعرض في ذهني – كشريط سينمائي– منظر المدينة والحارات وأكشاك البيوت وصحونها وبركها. منذ ساعة كنت أتذكر بسهولة الشوارع المليئة بالناس الهاتفين ضد الاحتلال الفرنسي والجنود المغاربة والسنغاليين. ماذا حصل لي؟ هل حدث ذلك بسبب الدواء الذي تناولته بعد الغداء؟. بالطبع لا... فهذه الحبوب تفعل معي العكس تماما. لقد استنتجت أنها تهيج ذاكرتي وتحدث لي " استقلابات ذهنية " حسب تعبير الطبيب وغير المفهوم مني بتاتا. ما معنى "الاستقلابات الذهنية "؟ في كل حال لن أفكر في هذا الأمر، ولكن لماذا لا تحدث تلك الاستقلابات الآن؟.

فكرت. أظن لأنني أعيش الذهن أو الفكرة أو الذكرى أو الشعور... أو الشيء الذي أصبحت فيه. لم تعد البلد صورة بل حجارة. لم تعد الشوارع خطوطا متعرجة معتمة، بل إسفلتا مائعا مشيت عليه. يحدث معي في بعض الأحيان ما يلي: يصادف أن أشاهد صديقا لم أره منذ عشرين سنة. أستطيع أن أرمم صورته القديمة في ذهني بسهولة، وحالما أقابله وتطالعني هيئته الجديدة تمحي فورا صورته القديمة وتحل محلها صورته الجديدة، ويصبح من المتعذر على ذهني رسم تلك الصورة التي عمرها عشرون عاما، وتصبح مقارنة الصورتين شيئا مستحيلا. فجأة تنبعث في ذهني أمور كنت أخاف منها، لا أريدها.

إن صورة ذلك الصبي الذي يحمل صرة ثقيلة ويتدحرج في شوارع بيونس آيرس مع رجل وامرأة وفتاتين، وصورة الميناء وساحة " ماجو " وشوارع " باتريسيوس " ومصنع النسيج والمدرسة الليلية ومشرب البيرة الصاخب مع خوان والغابة في ضواحي العاصمة في الطريق إلى جبال " أكونكاغو "، وصورة متجمدة لخوان وهو يرقص وغيرها، هي التي حلت محل صورة حارتنا ومئذنة الجامع والمربع والطاقة وجسد أميرة.

لا. أنا لا أقبل ذلك...لم يكن هذا شرطي عندما ابتعت تذكرة السفر إلى الوطن!. هل جئت إلى هنا لأتذكر ماضيا أكرهه، ولأنسى ماضيا أحبه؟. لنحل الموضوع فيما بيننا. هل أحن إلى شعور أميرة، أم إلى شعور أندروميتا؟ هل أعود إلى الأرجنتين أم أبحث عن أميرة ؟. تصور يا عبد الله وأنت واقف من جديد فوق سرير والديَّ أميرة وتتحسس جسد الفتاة العاري. أليس ذلك جميلا؟ إنه بالفعل ما أنا قادم من أجله. إنه يرضيني. أندروميتا ليس لها مكان في قلبي، تلك المرأة التي وجدت حلا إلهيا لزوجها العاقر. آه... لقد تذكرت شيئا (إنه روح الشرق، وروح الشرق هي المفتاح المهم لعقلي). إنها زليخة عمة والدي. عندما ذكروا هذا الحديث أمامي كنت في العاشرة، ومع ذلك أحببت زليخة، تعاطفت معها، هاهي عمة أمي تطرق باب ذهني فتحل المشكلة.

عاشت زليخة عمة أمي أربعين عاما مع زوجها دون أن تنجب له. وضعوا الحق عليها، ثم عليه، ثم عليها... ثم... وهكذا. وعندما ازداد الكلام والتلميح أن على زوج زليخة أن يتزوج من غيرها من أجل الخلفة... بت في الأمر وأعلن صراحة أنه هو الذي لا يستطيع الإنجاب. إذن الحق عليه، فسكتت الألسن وأصبحت زليخة مدللة عند حماتها، ولم تعد مهددة بضرة.

بعد أربعين عاما مات الرجل. قالوا لها يا زليخة يجب أن تقعدي في العدة. سألتهم ما هي هذه العدة؟ قالوا لها أن تقعدي مائة يوم في بيت لا تطأه قدم رجل يجوز لك. سألت لماذا، فقالوا لها لكي لا نقع في مسألة فصل حليب المعزاة عن حليب البقرة. فقالت لهم:

– لا يوجد ضرورة لذلك، الرجل لم يكن فحلا فبقيت عذراء. رجاني ليلة عرسي أن أصمت فصمت أربعين سنة. أحببته وأحبني. هذا الأمر لم يكن مشكلة، نسينا ذلك. لم أكن أتذمر كي لا تقل هيبته بين الرجال.

"لم تكن تتذمر كي لا تقل هيبة زوجها بين الرجال " بينما أندروميتا فضحتني في كل الحي. لم تترك إنسانا أو إنسانة إلا وأخبرتها أن خصيتي شكل دون مضمون، أجراس دون رنين، حمل دون وزن... حتى أنها حاولت إقناعي بالنوم مع عشيقها القديم سرا كي تنجب. يا لها من سافلة!.

خفق قلبي بشدة وغابت الآلام عن مفاصلي ولم أعد أحس بالإرهاق. شعرت أنني مستيقظ ولم أنم. نهضت والعرق يزخ مني ويسيل في جداول إلى الأسفل. اللعنة على المكيف... اللعنة على قسم السرفيس!. أخذت دوشا ثانية ثم ارتديت قميصا خفيفا ملونا وبنطالا أخضر. كدت أخرج وإذ بعامل الصيانة يقف بالباب، سمحت له بالدخول ونزلت بالمصعد. الحمد لله أنه لم يأت قبل أن أفكر بزليخة. خرجت من البوابة إلى الرصيف فهبت علي نسائم مسائية دافئة. حتى الأمسيات دافئة. بلدي شيء رائع. بلدي يعمه الدفء.. ألم آت من أجل الدفء؟.

دفعني رجل بكتفه فاعتذر. ابتسمت له. الرصيف يعج بالناس والشارع المسفلت يعج بالسيارات. والساحة العريضة في الطرف الآخر هي المكان الوحيد الذي يسير فيه الناس براحة.

الساحة جميلة بنوافيرها وأشجارها وأضوائها الملونة والحليبية. قررت أن أجتاز الشارع إلى الساحة. هذا المكان جميل وقد تهب عليه نسائم ألطف. يلزمني التنزه قليلا للتريض في مكان كهذا. حاولت اجتياز الشارع

دون جدوى فقد كان سيل السيارات لا ينتهي. ما إن تتوقف الإشارة الخضراء من الشارع الممتد حتى تنهال صفوف جديدة من الشارع المتعامد وهي تجأر وتثير الغبار. أخيرا قررت التراجع وعدم المغامرة فأنا في الستين، والإنسان الذي في سني يصبح أكثر تحسبا للأخطار. بقيت على الرصيف وسرت باتجاه الشارع المتعامد لشارع الفندق. قبل أن أنعطف شاهدت الناس الذين وقفت معهم لاجتياز الشارع قد هجموا وأجبروا السيارات على التوقف. أحدهم شتم سائقا فأجابه الأخير ببوق سيارته. أردت العودة للوصول إلى الساحة إلا أن السيارات جمحت وانطلقت من جديد وهي تشفط.

سرت على الرصيف وسط الزحام حاولت تذكر الشارع دون جدوى. هل هو جديد؟ لا... إنه مجدد، يبدو عليه ذلك، فقد اختلطت الأبنية العتيقة بالأبنية الحديثة. الأبنية القديمة مهملة سوداء مغبرة أما الأبنية الحديثة فقد زحف عليها السواد بنسبة أقل. اشتهيت إشعال سيجارة إلا أنني توقفت، فالشارع أضيق من أن يتسع لهذا السيل الجارف من السيارات والغبار والغازات فكيف إذا أشعلت أنا أيضاً سيجارة. لست أنانيا إلى هذا الحد.

الشارع مكتظ والرصيف والحوانيت. بضائع. جعلت أتسلى أولا بمراقبة القمصان والبناطيل. ألبسة من كل الأنواع. عادية وبلوجينز. الأضواء قوية في الدكاكين فتبدو الألبسة بهيئة جميلة. خصوصا البلوجينز المعروض بشكل متميز مع صور ملونة على زجاج الفترينات. وقفت أراقب " مارلين مونرو " وهي تقدم لي ثدييها بطريقة مثيرة، وفي حانوت آخر صورة لثلاث فتيات أوروبيات يعرضن مؤخراتهن ببناطيل الجينز. صورة أخرى لأجاصة على شكل مؤخرة ترتدي بنطالا من الجينز. الله أكبر. بلوجينز ومسجلات الكاسيت، وأشرطة كاسيت وساعات (لونجين) وقداحات " ديبون "و " دانهيل ".

وصلت إلى منتصف الشارع. أزداد الضجيج بشكل مزعج. أمام كل دكان موتور يزعق بصوت شبيه بصوت "الموتوسيكل " ما هذا؟. تفحصت أحدهما فتأكدت أنه مولد كهربائي. كان التيار قد انقطع. ابتعدت مسرعا عن الموتورات. وقفت عند إشارات المرور كي أجتاز الشارع إلى الرصيف الآخر. عندما تكون الشارة خضراء تمرق السيارات بسرعة عجيبة. كأنها في أوتوستراد الضاحية (مرسيدس، بيجو، مازد، ميتسوبيشي...!) محركات هذه السيارات لا تصدر أصواتا مزعجة، ولكنها تصفر عندما تمرق بسرعة. كانت الشارات مطفأة فاختلط الحابل بالنابل. من يستطيع اجتياز شارع كهذا؟... أنا مريض. الضجيج لا يلائمني. أصوات مولدات الكهرباء ومكبرات الصوت تشعرني بالإرهاق. عندما اكتشفوا مرضي بواسطة التحاليل والسنيور كومب أخبروني أن علي أن أبتعد عن الضجيج. قالوا لي أنَّ جناح السرطانات في المستشفى الملكي ببوينس آيرس يمتاز بهدوئه ونظافته. هيا سجل اسمك يا سنيور عبد الله!. هنا الصمت يشبه صمت القبور، ثم لا تنس الدورة التثقيفية والألعاب الإلكترونية وإبر المورفين.

شيء جميل، كل شيء مدروس بشكل أن يتم الانتقال إلى الحفرة النهائية بهدوء واتزان. قلت لهم أريد الرحيل، لا أريد صمتكم بل صمت بلادي، هدوء بلادي، والألفة القديمة للحارة الغاطسة في عتمة المغيب...

لم يكن الزحام في الطرف الآخر من الشارع أقل. وصلتنا آخر أغنية " لوردة". آخر أغنية لميادة الحناوي آخر أغنية " لخوليو ايغلسياس " ... "ديسكو وليد"، " ديسكو جورج ". ديسكو قز القرد... بم... بش،

بم... ون، تو، ثري، فور، ويهز أحد المستمعين خصره مع الموسيقى. أعجبه الشريط في النهاية، فيقدمونه إليه ملفوفا بالسيلوفان ويدفع الثمن.

جاء أحدهم وعرض عليَّ ثريا كان يحملها. ثم جاء بائع دخان مهرب. سألت نفسي لماذا لا يعرضون هذه الأشياء في دكاكينهم، ثم جاء بائع يانصيب. ولد في الثانية عشرة علق بي. تشاغلت بمراقبة أحد المقاهي كي يتركني في حالي، فقد كانت أعصابي متوترة، كنت أسد أذني بإصبعيّ الوسطانيتين. عندما قلت له لا أريد سمعت صوتي متضخما جدا، وعندما تركني ابتعدت عن المقهى المكتظ وقد فترت رغبتي بشرب فنجان قهوة عربية.

عدت مسرعا من حيث أتيت. لم أعد أتطلع في الفيترينات. كان همي أن أصل إلى الفندق حتى لو لم أتطلع مرة أخرى إلى صورة الإجاصة. أحسست بشيء ينتفض في رأسي، وبتنفسي يضيق، وهبوط حاد في قوتي. قلت لكم إنني مريض... قلت لكم يا... احملني يا خوان...

– خوان... يا خوان...

دفعوني، لكزوني، زفروا في وجهي. تطلعوا إلي وهم يضحكون.

– خوان...!

ها هو الفندق، ها هو المطعم، ها هو مقعد فارغ. غطست فيه وألقيت رأسي على الطاولة.

قضيت نهاري الثاني كله وأنا مستلق في غرفتي. البارحة حدث معي شيء غريب، لم أفهم ما حدث ولماذا خارت قواي وتوترت أعصابي وفقدت القوة على حمل نفسي؟... شيء عجب حدث معي البارحة. هل تنفس المرض أخيرا، هل بدأ يصرعني؟... أم أن الآلات والمولدات والسيارات الحديثة وأصوات الستيريو في كل مكان والزحام قد فعل فعلته وقهرني هو بدوره؟...

أنا مريض. هذا لا شك فيه. عليَّ أن ابتعد عن مركز المدينة. سأترك هذا الفندق وأبحث عن آخر في الضواحي أو في الأحياء الشعبية. البارحة، عندما صعدت بالمصعد بعد أن هدأت نفسي وذهب جفلاني، شاهدت رجل الصيانة مازال في غرفتي. كان قد فك جهاز التكييف وجعل يحملق بأسلاكه وأنابيبه ساعات ممسكا بالمخطط التكنولوجي للجهاز.

استلقيت في فراشي الحار وسألته:

- ماذا حدث له؟.

– لقد حيرني الملعون. لا أفهم عطله.

سألته وفي صوتي رجفة:

– وهل تستطيع إعادة القطع إلى مكانها الأصلي.

تطلع إليَّ بخجل وقال:

– هذه هي المشكلة!.

إذن هذه هي المشكلة. بقي حتى منتصف الليل ثم رحل. قال إنه سيعود غدا لينهي تصليحه. أخذ معه المخطط التكنولوجي ليقوم بدراسته في البيت. أصبحت غرفتي ورشة تصليح. في صباح اليوم التالي جاء رجل الصيانة مع اثنين من زملائه. كانوا قد درسوا المخطط في الليل ووضعوا عليه شروحاتهم وآراءهم أسهما وخطوطا باللون الأحمر والأزرق والأخضر.

جعلوا يفكون الجهاز ثم يعيدون قطعه ثم يجربونه ثم يعيدون فكه... وهكذا، وأنا مريض ملقى على السرير أبلع حبوبي الأربعة والعشرين، وأتعرق. رحل أحدهم مدة ساعة ثم عاد بمراجع سميكة باللغة الإنكليزية. قرؤوا وتناقشوا واختلفوا.

زعل أحدهم فرحل. تابع الاثنان بهمة ونشاط حتى بدأت ثيابهم تنقط عرقا. نمت واستيقظت عدة مرات. تناولت طعام الإفطار والغداء في غرفتي. لو لم يكن رجال الصيانة موجودين لحسبت نفسي في أحد المستشفيات. حمدت الله لأنهم موجودون، فأنا لا أطيق المستشفيات.

في صباح اليوم الثالث أحسست بشيء من الانتعاش بسبب الكميات الهائلة من العرق التي فرزها جسمي، وبسبب الحبوب المضاعفة التي بلعتها. ارتديت ثيابي ثم ودعت رجل الصيانة وزميله ودخلت المصعد.

عندما وصل إلى الطابق الثالث انقطع التيار الكهربائي. كان معي في المصعد امرأة أجنبية شابة. لم يظلم المصعد، فقد بدأ ينوس مصباح ضعيف يعمل على بطارية احتياطية. أحسست بأعصابي تعود للتوتر، وبخوف كخوف الحيوانات من المكان الضيق. أيضا أصابني الذعر من أن أفقد السيطرة على نفسي.

كبست المرأة زر الإنذار دون أن تنتظرني. سمعنا طرقا على أحد أبواب المصعد يعلمنا أنهم فهموا ذلك وعلينا الانتظار. سألتني المرأة لتمضية الوقت (كانت هادئة الأعصاب بشكل غريب) وباللغة الإنكليزية:

- هل حدث ذلك معك في السابق؟...

قلت لا... فقالت:

- ألهذا السبب تبدو عصبيا ووجهك مصفرا؟...

– أنا لا أحب الأماكن الضيقة والمصاعد المتوقفة بين السماء والأرض.

– حتى ولو كنت مع امرأة؟.

قلت لها وقد نسيت الخوف من ضيق التنفس:

– المرأة استثناء فهي مكان ضيق أيضا، ولكنها ليست قطعة تكنولوجية تتوقف عن العمل في لحظة دقيقة ولا تكون مفهومة بعد ذلك.

ابتسمت المرأة. أخرجت كتابا من محفظتها وجعلت تكش الهواء أمام وجهها. فعلت الشيء نفسه بكتاب " هيجان " لفيلالنفا. سألتني وهي تنظر إلى عنوان كتابي وأنا إلى عنوان كتابها:

- بأي لغة هذا الكتاب؟.

– ا لإسبانية...

– الإسبانية؟ من أين أنت؟.

- من الأرجنتين؟.

- آه... الأرجنتين– صافحتني بحرارة وهي تضحك– مارادونا؟...

يا إلهي، عدنا إلى مارادونا، هذا الرجل أشهر من جنرالاتنا وأشهر من ايفيتا بيرون ومن جزر المالفيناس!. سألتها:

- ومن أين المدام؟...

- من هنغاريا. أنا من بودابست. هل زرت بودابست؟.

– لا يا مدام. لم يحصل لي الشرف. يقولون إنها جميلة جدا. أنا أحب " فرانز ليست " والدانوب الأزرق و " جورج لوكاتش ".

آه... أطلقت المرأة صيحة فرح، ثم جعلت تصفق وتضحك. صافحتني ثم ربتت على ساعدي ثم ترددت ثلاث مرات وقبلتني بعدها على خدي.

فتحوا الباب. تأسفت لذلك، لو لم يتعطل المصعد لما قبلتني المرأة. كم اشتهيت أن نبقى وأن يبقى المصعد والمكيف معطلان، ففي هذه الظروف ينمو الحب والألفة والتعارف بين الشعوب. تلقاها زوجها في الصالة ضاحكا. صافحني الرجل أيضا بعد أن عرفته بي بلغتها وسمعتها تذكر اسم " لوكاتش " تركتها ودلفت إلى المطعم.

الصالة المكيفة جيدا هي عبارة عن مطعم ومقهى وكافتيريا وبار في نفس الوقت. انتقيت طاولة بجوار المكيف المتوقف عن العمل. طلبت قنينة وفنجانا من القهوة المركزة. أشعلت سيجارة. ثم رحت أرشف قهوتي بتلذذ. كانت مصنوعة بالآلة " أسبريسو". أشارت إليَّ المرأة بيدها تودعني وهي خارجة مع زوجها. أخرجت

من حقيبتي قلما ودفترا وبدأت أضع خطتي. بعد قليل امتلأت الطاولة المزدوجة جانب طاولتي بشبان متزنين، يضعون نظارات طبية فوق أنوفهم، وراحوا في حوار أدبي طويل. خمنت أنهم من الأدباء، فقد ذكروا غابرييل غارسيا ماركيز سبعا وعشرين مرة.

ارتشفت كامل قهوتي ودخنت ثلاث سجائر دون أن أتوصل إلى بند واحد من خطتي. أين سأذهب؟ نسيت أسماء الأحياء والحارات والشوارع وأسماء أقاربي. لا أعرف من بقي حيا ومن مات، المدينة لم تعد كما كنت تتخيلها يا عبد الله. شوارع عريضة ومسفلتة. مخازن، حوانيت وسوبر ماركات، سيارات فارهة من موديلات حديثة. حسبت أنك قادم كي تجلس في حنتور يطقطق حصانه على الأحجار البازلتية بحوافره، خارقا صمت المدينة العتيقة وأنت تتفرج عليها، وفي فمك سيجار غليظ رائحته مقرفة، مثل السياح الأمريكان الذين كنت تشاهدهم في بوينس آيرس، والهاربين من ناطحات السحاب ومنظر تمثال الحرية ومبنى الأمم المتحدة. كيف حدث كل هذا يا عبد الله؟ جئت فلم تجد ولا آدميا واحدا يركب حمارا يقوده بالنكش وطقطقة اللسان بالحلق، فتركض خلفه وتصيح وأنت تصفق: البدوي راكب جحشو، هب الهوا في بخشو يا ربي تبعج كرشو، لأساوي (عقبو) زماره.

أقنعت نفسي أخيرا بالتفكير، وترك هذه الأفكار اللعينة التي تهجم عليَّ وتمنعني عن استعمال دماغي. مهمتي الآن إيجاد خيط للاتصال بمن بقي من أقاربي. ما جدوى أن أقعد هنا في فندق بثلاث نجوم ينصب الشباك لي، تارة من خلال مكيف عطلان- بذل ثلاثة فنيين ثم اثنان كل جهودهم العقلية والجسدية من أجل إصلاحه دون جدوى- وتارة بإيقاف التيار الكهربائي وأنت نازل بالمصعد مع شابة أوروبية عرفت مدى ثقافتك ومعرفتك بالهنغاريين فتقبلك قبلة مكافأة لك على ذلك، ولولا تلك المرأة لحدث معك مرض الأمكنة الضيقة الذي بدأت تعاني منه منذ أن ماتت زوجتك الثالثة ماريتا بعد أن ارتعبت وزعرت من طريقتك السخيفة في الإعلان عن جوعك.

فتحت حقيبتي وأخرجت جميع دفاتر مذكراتي وسجل أرقام الهواتف وأخذت أبحث فيها عن أي شيء يدل على وجود عنوان أو رقم هاتف لإنسان ما، يمت لي بصلة القرابة. وبينما كان الشباب الذين أصبحت أعتقد جازما أنهم من الأدباء، يناقشون مسألة استخدام الكومبيوتر في كتابة الرواية العربية، خطر لي فجأة أو اقتنعت فجأة أنه لم يبق لي قريب واحد حي سوى ابنة خالتي زكية التي أرسلت لأمي رسالة منذ خمسة عشر عاما، تعلمها فيها أن أمها، أي خالتي، قد ماتت، وقد استلمت الرسالة بنفسي من مكتب البريد، بعد أن أبرزت الوثائق اللازمة التي تثبت أنني ابن المرسل إليها أي ابن المرحومة، لأن أمي كانت قد ماتت قبل ذلك بسنة واحدة، وقد قمت حينها بإرسال تعازي والدتي إلى ابنة خالتي وإعلامها أن أمي قد أعطتها عمرها فأرسلت ابنة خالتي رسالة أخرى تعزيني بالفاجعة التي أكل الدهر عليها وشرب وتعلمني فيها أنها بكت كثيرا لخبر موت والدتي وأن جميع أجدادي وجداتي وأخوالي وخالاتي وأعمامي وعماتي وكثيرون غيرهم مما لا تدعو قرابتي البعيدة لذكرهم هنا، والذين كنت قد نسيت ملامحهم وأسماءهم وأشكالهم قد ماتوا، فقمت بالترحم عليهم. كما أن ابنة خالتي (وهذا ما تذكرته الآن وأنا أشرب قهوتي في مطعم الفندق ذي الثلاث نجوم) كانت قد تزوجت وأصبح اسمها " زكية فرح" بعد أن كان اسمها "زكية كبة" فزوج خالتي من عائلة كبه المحترمة وقد مات هو أيضا. إذن خطر لي ذلك، أن ابنة خالتي حية ترزق أو قد تكون كذلك، وأن علي أن أبحث عن أي

إنسان من عائلة فرح فربما عرفها ودلني إلى بيتها. ولكن أين أجد هذا الإنسان؟ اللعنة عليك يا عبد الله!. كيف لم توثق الرسالة وتؤرشفها لتستفيد منها في معرفة عنوان ابنة الخالة الباقية على قيد الحياة، وأنت المشهور بوثائقك وأرشفتك لكل غث وثمين، لكل جاد وسخيف. حتى أنني مازلت تحتفظ برواية "الساعة الخامسة والعشرين" وكتابات " نورمان ميلر " المفعمة بالجنس وإرهاصات فكر المنشق الروسي "سولجنيتسن ".

رفعت يدي إلى الموظف (أنا أحب استخدام هذا النعت عوضا عن الساقي أو النادل أو الكرسون). جاء الرجل مبتسما. قال لي ماذا يطلب السيد، قلت له إن لي قريبة في هذه المدينة وإن علي أن أتصل بها ولا أعرف عنوانها ولا أين تسكن وما هو اسم زوجها وأنها من عائلة فرح، وأرجو أن يدلني أحد على أفضل طريقة للبحث عنها. أشعل الموظف سيجارة أخذها من علبتي المطروحة على الطاولة ثم حك رأسه ونتف شعرة بارزة من فتحة أنفه، ثم قال وهو يهز رأسه بأسف أنه لا يعرف أحدا من عائلة فرح. فأصابني إحباط شديد، فقد كان يبدو ذكيا جدا. فقلت له أنا لا أتوقع أن يعرف هو أحدا من عائلة فرح بل إنني أسأل إن كان يعرف طريقة ما للبحث عن مفقود. هل يوجد مثلا مركز حكومي لذلك كما هو الحال في روسيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث قتل وجرح ربع الشعب وضاع الربع الآخر. حك الموظف رأسه ثم سألني عن العلاقة بين عائلة فرح والحرب العالمية الثانية، فأصابني الإحباط مرة أخرى فسألته إن كان هؤلاء الشباب الذين يتحدثون بالأدب دون كلل باستطاعتهم مساعدتي، فذهب وعرض عليهم الموضوع فجاء أحد الأدباء وكان طويلا ونحيلا ومصلوعا فدعاني إلى طاولتهم، فجمعت سخافاتي في حقيبتي ثم انضممت إليهم. أخبرتهم بمشكلتي قلت لهم إنني من المغتربين وقد هاجرت من البلد مع أبي وأمي وأختي منذ خمسة وأربعين عاما. أي منذ أن كان الفرنسي يدنس أرضنا ومنذ أن كان الناس يتظاهرون ويهتفون ويلقون الحجارة غير آبهين لرصاصات جنود السنغال الذين لا ذنب لهم هم أيضا، وإنني عدت أخيرا إلى الوطن لأموت فيه (قلت ذلك بصراحة لأنهم من المثقفين وليسوا من موظفي الجمارك أو الأمن)، وإنني لا أعرف اسما حيا حتّى الآن سوى اسم ابنة خالتي زكية فرح وإن زوجها من عائلة فرح فتكنّت بنفس الكنية، وإني أبحث عن وسيلة للبحث عنها.

تحمس الأدباء للموضوع وجعلوا يناقشونه نصف ساعة كاملة فأغنوه بنقاشاتهم، وأخيراً اقترح أحدهم (وكان لطيفا جدا وأديبا جدا)، بأن يبحثوا عن اسم العائلة ذاتها في دليل الهاتف. فاستحسنا الفكرة. طلبنا من فورنا دليل الهاتف الخاص بالمطعم فجاء به الموظف ذاته الذي نتف شعرة من فتحة أنفه، ففتحوه على الحرف " ف"، وما هي إلا لحظة إلا وكان أمامنا عشرون رقما هاتفيا، فتبرع آخر وقام بتسجيل الأرقام وما كتب إلى جانبها من أسماء وأسماء محلات، ثم اقترحوا أن نذهب إلى بيت أحدهم لنقوم بتدوير الأرقام والسؤال عن ابنة خالتي، إلا أنني رفضت ذلك ودعوتهم إلى غرفتي، حيث صعدنا إليها سيرا على الأقدام، فلم يكن التيار قد وصل بعد، وحيث كان عاملا الصيانة غارقين في عرقهما يعبثان بالمكيف العطلان محاولين إصلاحه دون جدوى، فاعتذرت لهما وقلت إننا لن نزعجهما أبدا وإنهما يستطيعان العمل دون أن يأبها لنا وتمنينا لهما التوفيق في ذلك.

أول هاتف طلبناه كان هاتف الخدمة حيث أوصينا على زجاجات البيرة المبردة والكازوز وبطحات العرق وفناجين القهوة كل حسب طلبه ولم ننس شيئا للمازة. ثم غيرنا مكان السرير كي نرتاح أثناء اتصالاتنا الهاتفية العديدة، وبعد أن تجرع كل مما قدم له بدأنا بطلب الأرقام الواحد بعد الآخر من عاملة السنترال التي يفوق

صبرها صبر أيوب فيما كان أحد الأدباء يكتب قصيدة شعر بهذه المناسبة العاطفية الرائعة، التي جعلتنا أصدقاء حميمين، ورفعتني إلى مصافهم، وعرفت فيها أن بلدنا مازالت مفعمة بالأمل والأدب.

بعد ثلاثة عشر رقما كنا نسأل المتكلم فيها عن زكية فرح ونشرح له المشكلة من أولها لآخرها فيعتذر بأدب جم ويعلمنا أن مثل هذا الاسم غير موجود عندهم، وصلنا إلى غايتنا. كانت المتكلمة هذه المرة فتاة شابة، ربما في العشرين من عمرها ذات صوت جميل غريد، خفق له قلبي بعنف، بسبب قرابة الدم فيما يبدو، وسألتها بنفسي عن زكية فرح.

قالت الفتاة بصوتها المغناج وهي مبتهجة:

– جدتي زكية؟. من يطلبها؟ شرحت لها القصة من أولها. كانت تهمهم وهي تستمع إليَّ. توقفت أنفاس أصدقائي الأدباء، وتوقفوا عن المضغ والبلع، كما توقف رجلا الصيانة عن عملهما وسقطا منهكين على الأرض صامتين. كان الجميع يتابعون حديثي وهمهمات الفتاة بتأثر. كدت أبكي لتأثري بتأثرهم. وعندما انتهت قصتي صمتت الفتاة طويلا حتى حسبنا أنها سقطت مغشيا عليها بعد سماع القصة. جاء صوتها معلنا:

– ولكن... يا أستاذ، جدتي ماتت منذ عشر سنوات...

أبعدت سماعة الهاتف عن فمي وأخذت أبكي. ابنة خالتي ماتت. أعلنت ذلك وأنا أنشج. التقط أحدهم سماعة الهاتف وفتح حوارا مع الفتاة. كيف ماتت ومتى وأين دفنت؟... قال لها إنني قطعت ألوف الكيلومترات من أجل أن أشاهد ابنة خالتي. سألها إن كان بالإمكان التعرف إلي والتكلم معي، فأخذت الفتاة اسمي كاملا وعنواني ورقم غرفتي " 747 " ثم أغلقت الهاتف على أمل الاتصال بي الساعة السادسة مساء في هذا اليوم. التف حولي أصدقائي الأدباء، وجعلوا يواسونني ويترحمون على ابنة خالتي. اعترفت لهم أنني مندهش لبكائي حتى أنني لا أتذكر شكلها وكيف كانت وكيف أصبحت. كل ما في الأمر أنني تلقيت منها رسالتين مليئتين بأخبار الموتى من أقاربنا. ومع ذلك ربتوا على كتفي حتى أن ألطفهم قبلني من خدي هذا ومن خدي هذا ونحن نتأهب للنزول إلى المطعم بعد أن ودعنا عاملي الصيانة اللذين تأثرا أيضا بموضوع ابنة خالتي ففترت همتهما للعمل.

ولما كان الانسجام بيني وبين الأدباء قد تم رغم فارق العمر الكبير بيني وبينهم، فأنا كما هو معروف قد أتممت الستين سنة عشت ربعها هنا، في هذا البلد، وعشت الأرباع الثلاثة الأخرى في بلد بعيد اسمه الأرجنتين، حيث تعرفت هناك بأحد الباقين على قيد الحياة، بأحد أحفاد أصحاب الأرض الأصليين لأمريكا العظيمة، التي فتحت يديها للهجرة بعد أن تم اكتشافها في عام 1492 من قبل رجل إسباني مغامر اسمه "كولومبس " الذي كان يبحث عن شواطىء الهند الشرقية فاكتشف أرضا جديدة قال إن سكانها، حمر البشرات، طيبو القلوب ومضيافون، فأخذ عشرة منهم ليثبت ذلك وعاد إلى إسبانيا حيث قاموا بتعليمهم الديانة الكاثوليكية، فهطلت الدموع من عيني الملكة صاحبة العرش الإسباني لأنها، وفي عهدها الذهبي هذا، استطاعت أن تزيد عدد المسيحيين عشرة آخرين كانوا فيما مضى يعبدون التراب والماء والهواء والنار. وعندما سألني أحدهم فيما إذا كنت مريضا، سألته لماذا يحس بذلك فقال لي لأن وجهي أصفر وهو يشعر بأني

أتألم من مفاصلي. فقلت له لا بأس، فأنا أحس بإرهاق خفيف وبدوار خفيف أيضا، وأن مرد ذلك يعود إلى تغيير الطقس. فاقتنعوا بذلك تماما فاستطعت وقلبي يخفق بشدة أن أخفي عنهم خبر مرضي اللعين، الذي اكتشفوه من خلال التحاليل العديدة التي جرت علي (تحاليل الدم والبول والغائط واللعاب والإفرازات المنوية)، والتي وضعوها في النهاية في جهاز الكومبيوتر الخاص في المستشفى والذي يطلقون عليه اسم دلع ذا دلالة ألا وهو " السنيوركومب " فاكتشف هذا السنيور أني قد انتهيت وأن مرضا خبيثا اسمه سرطان الدم قد أصابني وهو من النوع الحاد والذي لا يترك مجالا للمصاب به أكثر من مائة يوم على الأكثر، رغم أن هذه الدنيا مليئة بسرطانات من هذا النوع ولكن دون أن تكون حادة إلا أنها، في النهاية، تودي إلى ذات المصير.

إلا أنني حينما أخفيت عن أصدقائي الجدد مرضي، كما أخفيته عن صهري العزيز الأصلع صاحب المطعم اللبناني في ضواحي بوينس آيرس، فإن الدافع لذلك نبيل للغاية، فقد رأيتهم كيف تأثروا لموت ابنة خالتي زكية فماذا سيصير لهم إن عرفوا أنني سأموت بعد تسعين يوما من الآن؟. لا، لن أقع في مثل هذه الورطة ولن أدع أصدقائي الذين ضموني إلى شلتهم، يشعرون أن هذه الدنيا غريبة الأطوار مليئة بالسرطانات حيث الأبيض يغزو الأحمر وينهكه ويرهقه ويحبسه ويخنقه ثم يقضي عليه. وأنا لا أريد أن أجعلهم يقعون مثلي في مطب الاستقلابات الذهنية والتكلم مع الذات وشتمها، ولا أريد أن أذكر لهم أنني تعرفت في الأرجنتين إلى صديقي خوان ذي البشرة الحمراء الذي أخبرني بقصة الأبيض الذي غزا الأحمر وأباده، فلم يبق منه سوى بعض الأفراد منهم صديقي خوان وأخته " ماريتيا" زوجتي الثالثة التي نصحني خوان بالزواج بها بعد أن طلقت زوجتيَّ السابقتين " أندروميتا وإيمانويلا" لأسباب لا أستطيع ذكرها في كل لحظة وأمام كل إنسان، فهذه الأسباب تخجلني وتجعلني أحمر الوجه رغم أن ذلك يفيد قي تغيير هيئتي الصفراء. قال لي خوان بعد أن طلقت إيمانويلا قبل أن تموت بثلاث سنوات أثناء ممارسة الحب مع مدير مصنعنا في بيته السري حيث طق لها عرق في رأسها من شدة الشبق الذي كانت تتمتع به ابنة الحرام، قال لي يا عبد الله اترك النساء البيضاوات اتركهن إلى امرأة حمراء البشرة أو سمراء مثل العربيات، فقلت له وكيف أجد واحدة يا خوان يا عزيزي؟ فدلني من فوره إلى أخته ماريتيا رغم أنني كنت أعرفها جيدا ومع ذلك لم يخطر ببالي أن أعرض عليها الزواج. فقلت له يا خوان يا عزيزي هل ستقبل أختك أن تتزوج من رجل عاقر؟ فطمأنني صديقي الرائع بأن الهنود يتمنون الزواج بالعاقرين والعاقرات كي لا يتناسلوا ويقذفوا إلى هذه الدنيا البيضاء بأطفالهم الحمر فيتعذبوا ويذبحوا كما يحدث الآن للحمر والسود والسمر والصفر...

اقتنعت من فوري بعرض خوان الذي قاله لي بعد أن شرب الزجاجة الرابعة والعشرين من البيرة المثلجة ذات نسبة الكحول 6%. واقتنعت بعد ذلك " ماريتيا ". وفي الصباح التالي ذهبنا إلى دائرة النفوس حيث تزوجنا بوجود خوان كشاهد أول وحاجب الدائرة كشاهد ثان. ثم ذهبنا إلى بيتي، أنا وهي فقط كزوجين حديثين ففضضت بكارتها (وهي كانت أول زوجة لي أقوم بفض بكارتها أما الأخريات فقد قام آخرون بهذا العمل).

ثم عشنا معا سنوات عديدات، أحببتها خلالها كثيرا، رغم أنها لم تكن تمنحني شعورا مشابها (لشعور أميرة) بل كان شعورا قريبا من ذاك الشعور النائم في تلافيف دماغي، والذي يستيقظ كلما لمست امرأة جديدة. ولكن الحياة صعبة وفيها الكثير من الفواجع، وقد فجعت بامرأتي الثالثة " ماريتيا " حينما ماتت أثناء أو قبل أو

بعد مناداتي عليها معلما إياها أنني جائع. فأصابني تأنيب الضمير لأنني أعتقد أنها قد تكون ماتت بسبب رجفة رعب أصابتها من مناداتي عليها أنني جائع لأن امرأتي تنحدر من قوم أصيبوا بعقدة الخوف والهلع والرعب بسبب ما عانى أجدادهم وأجداد أجدادهم من مآسٍ، فقد كان الزوار البيض يذبحون القبائل الحمراء فردا فردا حتى الرضع منهم، فتنتهي وتباد قبيلة كاملة في بضع سويعات كي تفرغ الأرض منهم نهائيا فيسرحون بعدها ويمرحون على كيفهم ويبحثون عن الذهب والماس والمغامرات ويستوطنون الأرض الفارغة بحجة أنها فارغة كما حدث في جنوب إفريقيا وفلسطين وأوستراليا ونيوزيلندا...

لم أقل لأصدقائي الأدباء كل ذلك، فأنا لست حكواتياً طويل اللسان يسرد قصته لكل إنسان، رغم أن هؤلاء الأصدقاء ليسوا كل إنسان، بل كل ما كنت أريده أن أقف موقفا نبيلا منهم ولا أعكر مزاجهم الرائق وأذهانهم الرائعة الصافية المنتجة شعرا ومسرحا وروايات، جعلوا يفكرون الآن، وعن خطأ شديد،أنهم سيستخدمون " السنيوركومب " في كتابتها. وبينما كنت جالسا بينهم أدخن سجائري الأمريكية تذكرت الطبيب في المستشفى الملكي ببوينس آيرس لابسا صدريته البيضاء ماسكا عصا طويلة واقفا أمام سبورة سوداء يشرح لي المرض اللعين الذي أصابني وأصاب الكثيرين من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والقبائل والعشائر والشعوب والأمم وقارات بكاملها:

– تغزو الكريات البيض الفتية التي لا تكبر وتكتمل أو تهرم، تغزو بدون حدود وبشكل عشوائي، نخاع العظام في البدء ثم الأعضاء الأخرى فالجسم كله، وتتجمع داخل الدم، فتسبب به فقرا شديدا يعود إلى عدم كفاية نخاع العظام وشلله وتخرب الكريات الحمر...

إني آسف أشد الأسف لأنني لا أستطيع أن أتكلم مع أصدقائي الجدد عن هذه المشكلة فأنا أعرف أنهم أذكياء وأنهم إذا قاموا بفتح أي ملف فإنهم سوف يبدعون فيه ويغنونه شرحا وتنظيرا، فتغنتي فكرتي عنه ويصفو ذهني وتتوقف تلك "الاستقلابات الذهنية" التي تنبأ بها الطبيب المكتشف للمرض بمساعدة الكومبيوتر. أقول، حين ذلك، ستكون أفكاري واضحة لا لبس فيها عن كيفية غزو الأبيض للأحمر وطرقه وأساليبه وكيف يتمظهر وأية أماكن يضرب، وهل يغزو من الخارج أم ينبع من الداخل بمساعدة الخارج وهل يكتفي بخنق الأحمر والقضاء على عضويته أم أنه يقطع رأسه أولا ويبيد أثره وذهنه وعقله ولغته وقبور أجداده وأمثاله وأغانيه ورقصاته وألعابه وأهازيجه وتراثه وعاداته وتقاليده، ويجعله دون ماض ويجيِّر حاضره، ويلغي مستقبله فيبدل طرق حياته ومعيشته وسكنه وركوبه ويجعله مهتما بأمور سخيفة كلعبة كرة القدم وحرب النجوم "والكونغ فو " وغيرها... وغيرها، مما يجعله ركام أحجار وليس بناءً. أقوالا وليس معنى. ضجيجا وليس نغما، ويحوله إلى أجراس دون رنين أو فعل حب دون حَبَل.

وما إن اقتربت الساعة من السادسة مساء حتى بدأت أشعر بخفقان شديد في صدري وبرجفان في يدي وشفتيَّ، فقد حان وقت اللقاء مع أقاربي أي حانت العودة إلى الزمن الغابر والذكريات وصورة الأعمام والعمات والأعراس والدموع البريئة، فلم أعد أسمع نقاشات أصدقائي حول ديموقراطية التعبير والأدب الملتزم وحول حساسية جيل الرواد في الشعر الحديث وحول المصطلح العلمي والنقدي وغير ذلك من الأمور التي تهم أصدقائي ولا تهمني رغم احترامي التام لهم ولآرائهم ومسائلهم. ولم يعد ذهني مشغولا برجل الصيانة وزميله اللذين يقومان، في غرفتي بحل مشكلة العصر الكبرى ومسألة دخول التكنولوجية العصرية إلى دول

العالم الثالث، بل كان همي منصبا على مراقبة الداخلين إلى الفندق من رجال ونساء، وشابات جميلات (وأنا أراهن بأن حفيدة ابنة خالتي جميلة جدا) علّني أتعرف إلى أقاربي قبل أن يتعرفوا إليّ ويسألوا عني ذاك الموظف الذي نتف شعرة من فتحة أنفه، خوفا من أن ينتف شعرة أخرى فيصيبهم العجب.

وما إن تناهى إلى سمعي صوت إشارة موجز أنباء السادسة من راديو " مونت كارلو" التي كانت تبثها مكبرات صوت المطعم، حتى شاهدت فتاة تتكلم مع الموظف الذي كان يشير بيده إلينا، فتتركه شاكرة وتتقدم نحونا بخطو سريع متلهفة لمشاهدة شخص ما. سألت الفتاة عني، فنهضت معرفا بنفسي، ونهض أصدقائي معرفين بي أيضا متمالكين أعصابهم وعواطفهم كي لا تتحول إلى دموع غزيرة تنهمر على وجناتهم الكريمة. دعوناها للجلوس إلا أنها اعتذرت وطلبت مني أن أتفضل معها لأن والدتها، أي ابنة ابنة خالتي واخوتها وأخواتها يريدون التعرف بي، وهكذا كان. حملت حقيبتي، واعتذرت لأصدقائي فصافحوني وربتوا على ساعدي وكتفي ثم قبلني أحدهم، وهو نفسه اللطيف الذي قبلني في غرفتي بينما كانت دمعتان تنهمران على وجنتيه فمسحهما خجلا، فكشفتا ثقل الموقف على أعصابه. ثم تمنوا لي التوفيق في الوصول إلى ما كنت أصبو إليه فشكرتهم ولحقت بها.

جَلَسَتْ خلف مقود المرسيدس وجلست إلى جانبها وانطلقت تقود السيارة بمهارة لا مثيل لها متجاوزة جميع السيارات الأخرى مثبتة أنها سيارات سخيفة لا قيمة لها، ثم قدمت لي سيجارة وأشعلت لنفسها أخرى وتركت موسيقى البوب تتردد في عمق السيارة ذات النوافذ المغلقة والمكيفة جيدا ثم قالت لي وهي تستدير إليّ بين الفينة والفينة أنهم سعداء بالتعرف بي وأنهم فوجئوا بوصولي، وكان عليّ أن أرسل إليهم برقية أعلمهم بذلك إلا أنني كنت أهز رأسي مبتسما لا أعرف كيف أعبر عن شعوري ولا أعرف كيف أخبئ إحساسي.

أوقفت السيارة أمام باب حديدي واسع. التقطت جهازا صغيرا ذا أزرار ووجهته نحو الخارج. ضغطت بإبهامها على أحد الأزرار فانفتح الباب بهدوء واتزان مذعنا لجهاز التوجيه عن بعد. قادت السيارة عبر البوابة ثم أوقفتها. استدارت وأعادت الجهاز إلى الخلف ثم كبست زرا آخر، فانغلق الباب. راقبت العملية بمتعة حتى أنني ابتسمت. قادت السيارة من جديد ثم أوقفتها إلى جانب عدد من السيارات اللامعة.

قالت لي بلطف شديد وهي تبتسم:

– تفضل انزل يا أستاذ عبد الله!

خلعت عن ذهني قضية فتح البوابة بالتوجيه عن بعد ونزلت.

كانت الفيلا منارة من الداخل والخارج. ركبوا عدة بروجكتورات على الأشجار لهذا الغرض. اجتزنا المساحة الأمامية للفيلا وصعدنا درجا مرمريا. كانت تتقدمني قليلا لتدلني على الطريق. تطلعت إلى الخلف فبهرتني حزم الأنوار الشديدة. حسبت نفسي على خشبة مسرح، وعند باب الفيلا شاهدت كاميرا تلفزيونية تلتقط حركاتي من علٍ فأبعدت عيني عنها كي تبدو اللقطة طبيعية. دخلنا إلى صالون واسع. منار جيدا بثريات من الكريستال ومفروش بعدة أطقم من الموبيليا، مختلفة الأنماط، منها " اللويسيس " و " وصفي التل" و " الأمريكي ". وقفت مبهورا في بلاط " خوان كارلوس " هذا. تساءلت في نفسي أين أستطيع الجلوس، على أي

مقعد ومن أي طراز. اشتهيت الجلوس على الأرض المرمرية التي تذكرني بمراحيض مطار العاصمة. قالت لي حفيدة ابنة خالتي الجميلة وهي تشير إلى أحد المقاعد من طراز " وصفي التل ":

– تفضل اجلس أستاذ عبد الله!

جلست على أحد المقاعد التي من طراز آخر. لا أعرف لماذا لم أذعن لها. جلست ووضعت رجلا على رجل. أشعلت سيجارة ورحت أراقب الفتاة وهي تسير باتجاه أحد الأبواب. إنها في التاسعة عشرة، سمراء، نحيلة مثلي، شعرها منسدل بنعومة على كتفيها، تلبس بنطالا فستقيا وبلوزا برتقاليا. أخبرتني وهي تقود سيارتها أنها تدعى إلهام، وأنها هي التي تكلمت معها بالهاتف ظهرا، وأنها سعيدة جدا بالتعرف إلى قريبها المغترب.

بقيت بمفردي خمس دقائق أتفرس بالأبهة التي أنا فيها. أقربائي لا بأس بهم، تحسنت أحوالهم، من أين لهم كل هذا؟ أنا أعرف جيدا البيت الذي عاشت فيه ابنة خالتي. فجأة تذكرت البيت وتفاصيله. لا يذكرك بالشيء سوى نقيضه... الوجه الآخر.

كان بيتا منفردا، بسيطا، يبعد عن بيت أهلي مسافة عشر دقائق سيرا على الأقدام. بيت مليء بالورود ونباتات الزينة. زوج خالتي يحب الزهور، يعشقها. كل أسبوع يذهب إلى سوق الجمعة ليشتري الأصص، فلم يعد هناك مكان لأصيص واحد، فراح يركب بعضها فوق بعض. في ذلك البيت عاشت ابنة خالتي. عاشت ثم تزوجت برجل بسيط يبيع البزر للأطفال في لفافات مخروطية من الورق. وعندما شرعنا في حزم أمتعتنا للسفر إلى الأرجنتين، جاءت خالتي وابنتها وبكيتا طويلا لفراقنا المدينة وأهلها. ماذا حصل لبيت الزهور ذاك؟ كم أريد الجلوس والاختباء بين أصصه كما كنا نلعب في تلك الأزمان...

– أهلا وسهلا، أهلا وسهلا، أنا عديلة ابنة ابنة خالتك، الحمد لله على سلامتك...

نهضت مرحبا بابنة ابنة خالتي وأبنائها وبناتها. صافحتهم وأنا أعرف بنفسي. عانقني بعضهم فأحسست بخفقان شديد في صدري، فصعد الدم إلى وجهي فتورد.

ثلاث بنات وثلاث صبيان. ما شاء الله. ستة بعيون الشيطان. إلهام ووئام وسهام، تمام وهشام وعصام. كلهم يشبهون أمهم، والأم تشبه خالتي المرحومة. أكبرهم إلهام وأصغرهم عصام. الفارق بين الواحد والآخر سنة واحدة، أي أن ابنة ابنة خالتي قعدت ست سنين في البيت تحبل وتلد. ليست في كل حال مثلي. أنا عبد الله المشحْوَر الذي هاجر إلى خارج الوطن مرغما فأصبح كشجرة مقطوعة متيبسة لا تتفتق أغصانها في الربيع عن أي برعم. لو لم أهاجر مع أهلي هل كان الوضع سيختلف؟... ربما كان سيختلف، فأنا كشجرة "الدردار السوري" التي لا تعيش إلا في أرضها، فإن اقتلعت ذبلت وماتت في نسيجها الحياة.

جلسنا ورحنا نتحدث... كيف الحال، كيف الصحة، كيف هي الأرجنتين، كيف حال البلد كيف يمكن أن تقيم في الفندق؟ لماذا لم تأت إلينا مباشرة؟ الفيلا كبيرة وتتسع لعشرة من أمثالك... بابا تاجر، يعمل ليلا نهارا ومشغول دائما ولا نعرف بماذا يتاجر، آخر مرة شاهدناه فيها كانت قبل شهرين.

اصفر وجهي وأنا أستمع إلى الجميع يتحدثون دفعة واحدة. ماذا حدث لي، ضاق نفسي ورحت أشعر بالغثيان. تعرقت، رغم كل هذه المكيفات التي تهدر، فأنا جئت إلى الوطن لأجول في زواريب البنقسلي لا لأجلس هنا في زوبعة الأضواء الشديدة مع أناس يتكلمون دفعة واحدة.

هل أنت مريض؟

سألتني عديلة خانم، فقلت لها لا طبعا، إنني في صحة جيدة، وإنني سعيد بوجودي في بلدي وبين أهلي. وبينما كانوا يسألونني عن مارادونا وعن أفلام الكاراتيه في الأرجنتين وهل كنت ألعب شخصيا كرة القدم و" الكونغ فو" وعن الحب في أمريكا اللاتينية وعن غيرها وغيرها من الأمور التي تهم كثيرا الجيل الصاعد وغير الصاعد في وطني الحبيب، وإذ بالخادمة تعلن عن وصول السيد فيهرع الجميع إلى الخارج دون استثناء، فأتنفس الصعداء وأحمد الله أنني تخلصت من السيل الكلامي ذاك.

جلست وحيدا أنتظر السيد، أنتظر زوج ابنة ابنة خالتي. صحيح أنني سعدت منذ قليل لمجيئه وحمدت الله، إلا أنني كنت في قرارة نفسي أتمنى أن لا يأتي لأتمكن من الهروب من هذا البيت والعودة إلى الفندق، فأنا قد أصبت بالإحباط. إحباط كبير اصفر له وجهي ورحت أشعر بسببه بالغثيان.

لماذا شعرت بالغثيان، لماذا الآن؟ الأطباء في المستشفى الملكي ببوينس آيرس أخبروني أنني سأواجه مثل هذه الحالات في المراحل الأخيرة من المرض. قالوا لي بعد أن ضغطوا زراً في السنيوركومب فانكتب شيء على شاشته فراحوا يقرؤونه:

– سنيور عبد الله..بما أنك قررت عدم المكوث عندنا رغم الهدوء والسكينة التي يمكننا توفيرها لك، فنحن ننصحك بالابتعاد عن الضجيج وعن كل ما يمكن أن يثير أعصابك. حافظ على سكينة روحك (كيف ذلك؟) ابتعد عن الأطفال والمراهقين، لا تذهب إلى السينما ولا تشرب الخمر، لا تخرج مع النساء ولا تنم مع أحد... لا... لا... !!

كنت جالسا أستمع إليهم بصمت، إلا أنني كنت أشتمهم في نفسي... لعنة الله عليهم هؤلاء الأطباء. أثاروا أعصابي وهم يقرؤون عليّ تعاليم الكومبيوتر. سألني الطبيب المختص، الذي سحب إضبارتي وخطّ عليها بقلمه الأحمر، حرف**X**:

– إلى أين تريد أن تذهب؟

– إلى وطني الأول.

– العودة إلى الرحم؟

– لنقل ذلك.

– إن شعرت بوهن في جسدك أو انحطاط في القوة. أو آلام أو غثيان، فلا تهتم. كل شيء يسير بانتظام حسب تعليمات وتوقعات الكومبيوتر. خذ أدويتك حسب الإرشادات حتّى آخر لحظة.

– حسنا.

– إن أصبت بالإحباط في وطنك، فعد إلينا.

– ....

– سنيور عبد الله. أنت رجل مثقف. باسم العلم والحضارة والإنسانية نرجو منك أن تكتب كل شيء. اكتب مشاعرك وأحاسيسك وكل فكرة أو ذكرى تخطر في بالك. أكتب ذلك بالطريقة التي تعجبك كتقرير أو قصة أو رواية أو مذكرات. أنت حر، ولكن اكتب.

قلت له عليك اللعنة مرة ثانية. سألني: ماذا؟ قلت لماذا؟ قال:

– حالما تطأ قدماك أرض الوطن ستعود شرقيا. نريد أن نعرف كيف يفكر الشرقي وهو يعلم أنه سيموت بعد مائة يوم. هل تستطيع؟

فكرت بالأمر. إنهم يريدون معرفة كل شيء عنا... ولكن لا بأس. قلت له:

هل تريد أن أكتب لك أيضا بماذا يفكر الشرقي وهو يعلم أنه سيفجر نفسه بعد خمس دقائق؟.

– لا سنيور! اكتب فقط عن حالتك، وإن استطعت أن تبدع شيئا مهما فسنقدم لك مكافأة مالية مقدارها عشرة آلاف دولار سنسلمها لورثتك بعد وفاتك.

قام موظف الكومبيوتر بإدخال اسم وريثي وعنوانه إلى الجهاز. قرأت ذلك على الشاشة. ربتُّ على "السنيور كومب " قبل أن أخرج.

فتحت عينيّ وتطلعت إلى ساعة يدي. إنها السادسة صباحا. نهضت من الفراش وأوقفت المكيف. ضغطت زرا في الجدار فانسحب الأباجور إلى الأعلى. طالعتني قمم الأشجار في حديقة فيلا أقربائي. فتحت الباب الزجاجي وخرجت إلى الفرندة.

صباح جميل. تنفست ملء رئتي عدة مرات وقمت ببعض الحركات السويدية. أقربائي لا يعرفون متعة الاستيقاظ باكرا في بلدي. إنهم ينامون حتى الظهر. لا أعرف لماذا. "من يستيقظ باكرا يمتلك العالم" من قال ذلك؟ لا أتذكر... ربما كنت أنا. دلفت إلى الغرفة ثم إلى الحمام الملحقة. قمت بالواجب الصباحي وأنا أقرأ في المجلات الفنية المصوّرة.

حالما وصل جلال بك زوج ابنة ابنة خالتي، حتى حلفوا علي كي أبقى هنا. قالوا لي ماذا سيقول الناس إن عرفوا أنك قريبنا وتنام في الفندق. أنا لا أعرف ماذا سيقول الناس، وليس عندي فكرة عن ذلك إلا أنني وافقت. قلت لنفسي يا ولد يا عبد الله ألم تأت إلى هنا لتكون بين أقربائك؟ ألا يمكن أن تكون الفيلا محطة للبحث عن حي البنقسلي وهو الحي الذي عشت فيه وعرفت أميرة وشعورها؟ وافقت. صفقت إلهام من الفرح... وما هي إلا لحظة حتّى انطلقت هي وأخوها تمام إلى الفندق لمحاسبته وإحضار متاعي. عندما عادا أخبراني أن الإدارة ترسل إلي تحياتها وتخبرني أن المكيف في غرفتي قد تم استبداله بجهاز جديد. قررت أن أتصل بهم فيما بعد لأقول لهم رأيي في الفرق بين دخول التكنولوجيا إلى العالم الثالث ودخول العالم الثالث في التكنولوجيا.

حلقت ذقني ثم غسلت أسناني ووضعتها في فمي ثم نزلت إلى الشرفة الغربية. شربت القهوة التي قدمتها لي الخادمة. إنها تستيقظ باكرا مثلي. اسمها خديجة. في الأربعينات ونشيطة جدا. كنت أحسبها تركض ركضا. مضى عليّ خمسة عشر يوما هنا وأنا أراقبها كل صباح. كل يوم تحكي لي نبذة عن حياتها. في اليوم الأول حكت لي كيف ولدت. قالت لي إنها كانت الابنة العاشرة، وإن أباها كان يهدد أمها بالطلاق إن ولدت له ابنة أخرى. غطت أمها عينيها بعصابتها وحلفت يمينا أن لا تراها. طلبت من القابلة خنقها. وضعوها على الأرض ثم وضعوا طشتا مقلوبا عليها كي تختنق. وعندما غاب صوتها حملوها ثم أعطوها لأحد المجاذيب الذي كان يجوب الحارة كي يدفنها في " جبل العظام ". حملها الرجل وسار بها. في الطريق رجفت وعادت للبكاء. ارتعب المجنون فقذفها إلى الأرض وهرب.

– آ... وبعدئذ...؟

سألتها فأجابت وهي تبتسم:

– التقطني النَّور الذين كانوا يخيمون جانب "جبل العظام". ربوني ثم راحوا يرسلونني للعمل عند الأكابر.

– وكيف عرفت بقصتك؟

– لا يمكن لقصتي أن تكون إلا على هذه الشاكلة.

ربتّ على ساعدها. إنها طيبة. تنتظر نزولي إلى الشرفة الغربية كل صباح كي تهرع لعمل القهوة. صباح أمس حكت لي كيف وصلت إلى هنا. قالت إن عصام الابن الأصغر للست عديلة يضربها. سألتها لماذا يضربها فقالت لأنه شرير، يمضي نهاره كله أمام الفيديو في مشاهدة أفلام الكاراتيه والكونغ فو، لا يرى من يستطيع التدرب عليه سواها.

قررت أن أوجه إلى وجه عصام هذا لكمة إذا سنحت لي الفرصة.

قلت لها حين مرت بجاني بعد أن أنهيت قهوتي ودخنت عدة سجائر:

– لم تقعدي اليوم، ولم تحدثيني شيئا.

زفرت طويلا ثم مسحت على وجهها بكفيها وقالت:

– لم يبق لي شيء. قلت لك كل ما أعرف عن نفسي. أنا لقيطة رباني النور وأمضيت حياتي في خدمة البشر.

– ألا يثقل عليك أنك لم تتزوجي.

– ولماذا أتزوج، ليزيد عدد الذين أخدمهم واحدا آخرا؟. ثم أن نصيبي هكذا. لم يأت ابن الحلال بعد. أقول لك.. الزواج للأكابر فقط.

طبعا لم أناقشها. قد تكون على حق؟ تبسمت وهززت رأسي. قالت وهي تهم بالركض:

– الشغل اليوم كثير. الآنسة وئام ابنة الست عديلة ستخطب الليلة.

أعربت لها عن دهشتي، فأنا لا أعلم بذلك. استغربت هي عدم معرفتي بالأمر. قلت لها إن ذهني مشغول ولا ألتفت لأحاديث أقربائي. هزت رأسها وقالت إنها تعلم. قلت لها باندهاش:

– ماذا تعلمين؟

– أعلم أنك مريض يا سيدي.

اصفر لوني وبلعت ريقي. من كشف سري؟ سألتها من أين تعلم ذلك فقالت:

– عفوا يا سيدي هل أسأت إليك؟

– بل قولي لي كيف عرفت!

– إنك نحيل أصفر الوجه. عيناك ضامرتان، تتناول حبوبا متنوعة. في بعض الأحيان تتحدث مع نفسك وفي الليل تصرخ في منامك.

احمر وجهي هذه المرة خجلا. خمسة عشر يوما في فيلا "آل فرح" كشفتني للخادمة. لعنة الله على الفيلات، لو بقيت في الفندق لكان أستر لي. أصدقائي الأدباء لن يتطفلوا عليّ. سألتها وقلبي يخفق:

– وهل عرفت الست عديلة أي ابنة ابنة خالتي شيئا؟.

– إن الست يا سيدي، ماذا أقول، بسم الله الرحمن الرحيم، إنها تعلم أنك مريض. سمعتها مرات عديدة تتهامس بذلك مع السيد الكبير والآنسة إلهام.

هكذا إذن؟... انكشف موضوعي. كم أنا حزين على أقربائي. كم هم نبلاء وأصيلون. إنهم يدارونني ولا يظهرون معرفتهم بمرضي كي لا يحرجونني. إنهم حزينون عليّ على ما أظن. أنا لم أرد أن أدخلهم بمشاكل مرضي كي لا يشغلوا بالهم علي. تصور يا عبد الله أنهم عرفوا بموضوع اللوكيميا الحادة والأحمر والأبيض والمائة يوم.

هززت رأسي بأسى وأنا أتصورهم مشغولي البال. كم أنت مهمل يا عبد الله. تستحق أن تصلب قبل نهاية المائة يوم. كيف يمكن أن أقابلهم بعد الآن، بأي وجه؟ حتى إلهام اللطيفة الودودة التي صفقت فرحا لقبولي العيش عندهم، والتي لا تترك مناسبة إلا وتظهر عطفها وحنانها عليّ؟ في إحدى المرات لمست يدي برقة وقالت: يا أستاذ عبد الله أنت رجل رائع. كنت أحسب أنها تظهر احترامها لرجل مثل جدها وإذ بها تظهر عطفها وأسفها على رجل مريض سيموت بعد خمسة وسبعين يوما. يا إلهي كم أنا محرج... كنت أريد أن أخفي أمري عن أقربائي كي لا يعطفوا علي كما يعطفون على كلب دهسته سيارة ولم يمت بعد. الآن عرفت لماذا استدعوا طبيبا من معارفهم وتهامسوا معه ثم أخذ يسألني أسئلة محددة عن صحتي. رفعت رأسي فوجدت الخادمة ما زالت واقفة إلى جانبي. حمدت الله أنها لم تذهب بعد إلى المطبخ وسألتها:

– وكيف عرفوا؟

– سمعتهم يقولون للطبيب أنك كنت جالسا تستمع إلى أخبار الحشود العسكرية قبالة حدود الوطن، فرحت تتحدث مع سيدنا المسيح الذي طلب منك أن ترقص. يقولون أنك نهضت ورحت ترقص لعدة دقائق ثم سقطت دون وعي.

طلبت منها أن ترحل فركضت إلى المطبخ. هكذا إذن. لقد جاءني مسيح البايوتيه الأحمر "ووفوكا" كما كان يأتي لخوان صديقي. وجدت نفسي ابتسم. قلت لخوان:

– أنظر يا خوان، لقد أصبحت مثلك. بدأ يأتيني " ووفوكا" ويأمرني بالرقص، وهاأنذا أرقص كما رقصنا معا في الغابة المطلة على جبال " أكونكاغو" إنه يسعدني أن أصبح مثلك يا خوان...

– هل يسعدك ذلك حقا؟

– حقا يا خوان!

– عليك الانتباه يا عبد الله أ إنه نذير سوء. إنه إشعار بخطر ما محدق.

– وماذا يمكن أن يكون؟

– ليست عندي أي فكرة حتى الآن.

ليست عند خوان أي فكرة حتى الآن. انتابني قلق عظيم. كنت أحسب مجيء مسيح البايوتيه الأحمر عبارة عن اندماج نهائي بخوان وروحه. هذا الاندماج الذي كنت أسعى إليه منذ أن رقصنا معا في الغابة، وهاهو

خوان يحذرني. ماذا يا خوان؟ ماذا يمكن أن يكون؟ ظهور مسيح البايونيه أشعرني أنني خوان أيضا، تماما مثلما شعرت حينما أتوا، في ذلك اليوم قبل الفجر بساعة. كانت تمطر وترعد وتبرق. وأنا مستلق في فراشي وحيدا بعد أن ماتت ماريتيا. طرقوا الباب كأنهم يريدون تكسيره. غاب حلمي عن خوان وماريتيا ونهضت أفتح الباب. اندفعوا إلى الداخل وستراتهم وأحذيتهم الضخمة تنقط ماء المطر العالق بها، جنود ومدنيون مسلحون حملوني ونزلوا بي خمسة عشر طابقا. بقي بعضهم لتفتيش البيت وتكسير أدواته. ألقوني في قعر السيارة الشاحنة وداسوني بأحذيتهم. ثم من السيارة إلى أحد الأقبية الرطبة. كان المكان يفوح بروائح البول والغائط والدم المتفسخ. وضعوني على "مشرحة" خشبية وأوثقوني. قل الآن أين هو صديقك خوان وإلا جربنا عليك كل ما أنتجته تكنولوجيا التعذيب!.. انشق السقف ونزل منه خوان. جلس إلى جانبي وقال:

– سنتقاسم التعذيب مناصفة، هل توافق؟

هززت رأسي فاندمج بي. شعرت بقوة هائلة في جسدي. قلت لهم بشجاعة أنهم أنذال. وبهدوء غريب راحوا يستعرضون مراحل تطور الحضارة على جسدي. استعملوا الكماشة والسيخ والنار. ثم نفخوا عليّ بخارا حارا، ثم شدوا أضلعي بآلة ميكانيكية، ثم استخدموا الكهرباء، وفي النهاية جاؤوا بجهاز إلكتروني يصدر طنينا هائلا يصيب الإنسان بالصرع بعد ثوان فقط.

سألوني للمرة الأخيرة عن خوان. ضحكت لتفاهتهم. إنه في داخلي يقاسمني العذاب. بصقت في وجوههم وأنا أحس بأذنيّ تنزفان. جاؤوا بجهاز آخر غير معروف لديّ. قد يكون جهاز ليزر... من يعلم؟ فقد غبت عن الوعي ولما أفقت وجدت نفسي في أحد المستشفيات والجميع يبتسمون لي.

– صباح الخير.

حياني جلال بك وهو يجلس إلى جانبي. أحضرت له الخادمة قهوته ثم أشعلت له سيجارة. أخذ يرتشفها وهو يتجشأ. الآن بدأ صباحه. تطلعت إلى الداخل. كانوا يعيدون ترتيب الموبيليا. إنهم يستعدون لحفل الخطوبة. ابنة ابنة خالتي تشرف على الترتيبات. استقر عصام أمام الفيديو، وسهام كالعادة تبتبت في جهاز الهاتف مع صاحبها. جلال بك مازال يتجشأ. إلهام تروح وتأتي وتبتسم لي. الخادمة تمسح مرمر الأرضيات بآلة كهربائية. أطلق تمام زمور سيارته كي يستعجل أخته للذهاب إلى الكوافير. أحسست أن عليّ الهرب من الفيلا. سوف أعتذر لهم وأشكرهم لضيافتهم. سأكذب عليهم. سأقول لهم إنني سأرحل إلى الساحل للتمتع بالسباحة في مياه المتوسط، إذ علي أن أبحث عن بيتنا في حي البنقسلي. مرة سألتهم عن حيّنا فابتسموا. حسبوني أمزح. الأولاد لا يعرفونه. الست عديلة تتجاهله وكأنه يذكرها بماض سيئ. جلال بك لا يترك لي مجالا للتكم عن مشاكلي فهو مشغول دائما بتجارته وسياراته وبجهاز التلكس الذي أسمعه يعمل في مكتبه. سألته في أحد الأيام عن حي البنقسلي فقال لي إن سعر الدولار في ارتفاع مستمر. سألته ماذا يعني هذا؟ قال إنه يعني أن التضخم ماشي والحمد لله.

جاء ابنه هشام وقدم له رسائل التلكس لهذا الصباح. تطلع إليها جلال بك بقرف وهو يتجشأ. وضعها على الطاولة بإهمال ثم استدار إلي. قال وهو يبصق:

– إنهم يطلبونني في باريس.

تنفست الصعداء. كنت أعتقد أنه سيسألني شيئا عن صحتي، عن المسيح الذي طلب مني أن أرقص فرقصت فانكشف مرضي. قلت له وأنا اصطنع ابتسامة كابتسامة "غريغوري بك ":

– وماذا في ذلك، إن باريس جميلة في شهر آب.

– هذا صحيح، ولكن السفر من أجل العمل شيء آخر. لقد سرقت لنفسي إجازة، كما يسرق الجائع رغيف الخبز.

قلت له وقد أعجبني تشبيهه:

– إنني أهنئك يا جلال بك على نشاطك وأعمالك وبلاغتك... لكن ماذا تعمل؟

رفع حاجباه باستغراب وضحك ضحكة ناعمة:

– ألا تعرف؟ كنت أريد أن أفتح معك مواضيع في هذا الشأن، أنا تاجر أراضٍ ومواد أولية ومواد نصف مصنعة. أقصد أنني أتاجر بكل شيء. كما أنني أملك كثيرا من الوكالات العامة المهمة لسائر الشرق الأوسط.

– تتاجر بكل هذا؟ لماذا لا تتخصص بشيء معين؟

– هذا خطر يا عزيزي، ولا يلبي طموحي العظيم بالامتداد إلى كل مكان وفي كل زمان. تصور أني ربحت هذا العام عقدا لإنشاء معمل للزجاج، طبعا أنا أتقاضى كومسيونا على ذلك لأني الوكيل العام للشركة الفرنسية التي ستنشئ المعمل، هل تعلم كم تقاضيت؟... لم ينتظر كي أجيبه. فهو يعلم أنني لا أعلم، قال:

– أربعمائة ألف دولار أمريكي. إنه مبلغ ضخم أليس كذلك، مثله أمثال. لو لم أكن وكيلا عاما لستين شركة فرنسية وأمريكية وإنكليزية وإيطالية وغيرها، لما استطعت الاستفادة من برامج التنمية التي وضعت للبلد. ماذا ينقصني... آ... يا أستاذ عبد الله؟.

– لا ينقصك شيء يا جلال بك!

– طبعا... هذا البلد خام. يجب الاستفادة منه أثناء عملية تحويله من بلد خام إلى بلد صناعي وأنا لا أترك مثل هذه الفرصة تفوتني، تصوّر أن نصيبي من مائة معمل تم بناؤها كان اثنا عشر مصنعا. هل هذا كثير عليَّ؟

– كلا أعوذ بالله!

– أنت رجل متفهم يا أستاذ عبد الله، تصور أيضا أن برامج التنمية في بلدنا قد توقفت.

– لماذا؟ ألن يقوموا ببناء مصانع أخرى؟

– كلا... يقولون إن مصنع الزجاج هذا هو آخر مصنع يتم بناؤه في الخطة الخمسية الحالية. هذا مؤسف أليس كذلك؟...

– نعم!...

– ولولا مساعيّ الهائلة التي بذلتها لما كانوا وضعوا المصنع في الخطة.

– إنك رجل معروف على ما يبدو وصاحب كلمة مسموعة.

– نعم... وصاحب خبرة. إنهم، في غرفة التجارة، يأخذون رأيي في كل شاردة وواردة وقد قدمت لكثير من التجار والصناعيين نصائح مهمة. ويمكنك أيضا الاعتماد عليّ في توظيف أموالك. لقد فعلت جيدا لأنك عدت إلى هذا البلد، فهو، بالنسبة لنا على الأقل يعوم على بحر من ذهب. الأرباح عظيمة، قد تتجاوز الضعفين، الثلاثة أضعاف. يجب عليك أن تستشيرني أولا في أي عمل تفكر فيه، ويمكننا أن نقوم بأعمال مشتركة، كي ترتاح أنت، فأنا أعرف أنك لست في صحتك تماما.

أموالي... ها... ها... ها... ضحكت في سري طبعا. بماذا يخرّف هذا التاجر العظيم. إنه يقدم لي الوطن على طبق من ذهب. ولكنني لا أملك سوى بعض الشيكات السياحية يا قريبي، بعض الدولارات التي ادخرتها لهذه المائة يوم السود، وشيك سياحي آخر سأتركه كي يخرجوني به في يومي الأخير بما يليق بشرقي متحمس لشرقيته.

قلت له وقدكتمت سر رأسمالي عنه:

– قل من فضلك لماذا توقفوا عن بناء مصانع أخرى.

قبل أن يجيب مرقت الخادمة فوجدت سيجاره مطفأ. أشعلته له بعود ثقاب ثم ابتعدت قال:

– بصراحة أقول لك إن زملائي التجار والكومسيونجية وشركاءهم جشعون قليلا. كان عليهم أن يرضوا بالقليل كما أفعل أنا مثلا.

– كيف؟...

– عندما أصبح عند الدولة بعض الأموال قاموا بوضع الخطط الخمسية الجريئة. تدخل زملائي وأنا كي تلحظ الدولة في خططها بناء أكثر عدد من المنشآت التي لنا يد في إنشائها. ومعلومك أننا يجب أن نأكل وشركاؤنا يجب أن يأكلوا أيضا، والشركات الأجنبية تضع السعر الذي يلائمها لأننا نطلب تجهيزات ذات تقنية عالية... وهكذا تصبح الأسعار في مستويات لا تطاق، فيتم استجرار أموال أخرى ويتم وضع وتوقيع ملاحق

كشوف، ونطلب أموالا جديدة وهكذا. وفي النهاية... كما ترى. لم يعد بمقدور الدولة الاستمرار، فتوقفت كثير من المنشآت في منتصف الطريق.

– والمصانع الجاهزة؟

– المصانع الجاهزة تحتاج إلى خبراء لتسييرها. وهم يتقاضون رواتب عالية وبالقطع النادر.

– ولماذا نحتاج إلى الخبراء؟ لماذا لا نسيّر المعامل بأنفسنا؟

– لأنها ذات تقنية عالية.

– ولماذا نستورد تجهيزات ذات تقنية عالية؟

– لأننا نريد أن نتماشى مع العصر التكنولوجي الذي سبقنا بكثير.

أشعلت سيجارة كي أتمالك أعصابي، ثم قلت له:

– أنت تريد أن ندخل في العصر التكنولوجي دون أن نبني القاعدة اللازمة له. أنت تريد أن تفعل بنا كما حدث لوالدي عندما عبث بآلة نسيج حديثة ومتطورة وهو يحسب أنه يداعب نوله الخشبي العتيق. هذا لا يصح. علينا أولا أن نبدل طرق التعليم والتفكير والممارسة بحيث يصبح التعامل مع العلم الحديث والآلة شيئا يوميا إن لم نقل ساعيا. إن استيراد التكنولوجيا المعقدة للبهورة والفزلكة شيء خطر، فهو يمنع مجتمعنا من استنباط وتطوير أشكال تكنولوجية خاصة به. انظر... أنت قمت بإحضار الآلة المعقدة جدا، ماذا يعمل عاملنا أمامها؟ هل يفهمها؟

– كيف لا... إنه يتعلم بسرعة كيف يشغل الأزرار.

– يا إلهي... إنه يضغط الأزرار دون أن يعرف لماذا ودون أن يعرف كيف تعمل الآلة وماذا عليه أن يفعل حين يطرأ طارئ. أنظر يا جلال بك... هناك علاقة مهمة جدا بين الإنسان والآلة، بين الناس والعلم، بين التكنولوجيا والمجتمع، أحدهما يطور الآخر، علاقة قرابة وأخوة. لا يجب أن تدخل التكنولوجيا بلدنا كشيء غريب عنا لا نفهمه ونقف عاجزين أمامه.

– يبدو عليك أنك متخلف يا سيد عبد الله.

– أنا لست متخلفا... أنا أريد لوطني أن يتقدم. لكن دون أن يقع في مطب الفزلكة التكنولوجية الغربية. انظر إلى بيوتنا وفنادقنا وشوارعنا، هناك الفيديوهات والمسجلات والمكيفات وآلات تقشير التفاح والكومبيوترات. إنها آخر المنتجات التكنولوجية، في نفس الوقت الذي تنقطع فيه الكهـــرباء وتتعطل الأجهزة دون أن نعرف كيف نصلحها. في نفس الوقت الذي لا نحسب فيه للزمن أي حساب. إن الآلة التي نريدها هي

الآلة التي في واجهتها مؤشرات أكثر وأزرار أكثر دون أن نعرف أن هذه الأمور لا قيمة لها بل المهم في الأمر هو العلاقة الحميمة بين الزمن والآلة. السرعة والأجهزة الإلكترونية.

أشعلت سيجارة، ثم سألته:

– هل تعلم يا جلال بك كيف يستخدم أولادك التكنولوجيا؟

– كيف؟...

– يشاهدون أفلام الكاراتيه بواسطة الفيديو، يستخدمون جهاز الكومبيوتر للألعاب فقط. أولادك يضعون في الكومبيوتر برنامج حرب النجوم، كرة القدم، ولعبة النرد، وألعاب القمار التي اسمها " سيدة لاس فيغاس" وبرنامج حربي ذري للهجوم على موسكو وهناك برنامج كاوبوي لتذبيح الهنود الحمر.

صمتنا قليلا، ثم قلت لنعود إلى موضوعنا الأساسي:

– على كلٍ، هذا شيء آخر. يبدو أن الحاجة لمثل هذه المنشآت قررتها اعتبارات أخرى غير الدخول في التكنولوجيا المزعومة.

هز جلال بك رأسه موافقا وهو يقول:

– نعم... الكومسيون... وهذا شيء شرعي.

سألته بإصرار وأنا أتلمس بؤس الوطن:

– حسنا، وبعد ذلك، هل تنتج هذه المعامل حين يتم استدعاء الخبير التكنولوجي؟

– كل شيء على ما يرام، فهي تحتاج إلى قطع غيار بشكل مستمر ومواد أولية. ومعظم معاملنا قامت على أسس تركيبية وتحويلية، أي أنها صناعة تركيبية أو صناعة تحويلية وكلا الشكلين يحتاج إلى القطع والمواد نصف المصنعة. هل تفهم عليّ؟، أي أنك تستطيع يا أستاذ عبد الله أن تشاركني في دخول المناقصات لاستجرار هذه المواد من مصادرها الأوروبية، وهي مربحة جدا، أقصد المناقصات. خذ مثلا... أن جميع مصانع الأجهزة الإلكترونية والبرادات والأفران الكهربائية وغيرها هي مصانع تركيبية، أي أنها تحتاج إلى جميع قطع الجهاز لتقوم بتركيبه، وهذه القطع يتم إنتاجها– وأنت تعلم ذلك جيدا– في أوروبا وأمريكا واليابان، وهذا يعني استيرادا مستمرا لهذه القطع. إنني أقوم بدخول هذه المناقصات وتستطيع أن تشاركني بها إن أردت.

هكذا إذن... لعنة الله عليك يا جلال بك! لعنة الله عليك يا أستاذ عبد الله! أنت بالذات كنت تحسب أنهم دعوك للعيش معهم خوفا من كلام الناس. ماذا كان يمكن أن يقولوا؟ هراء!... طرت ثلاثين ساعة في طيارة

كي تموت في وطنك وبين أهلك وإذ بك رجلا " مدهنا ". دجاجة تبيض ذهبا لعبت عين جلال بك عليها. كدت أنادي على خوان إلا أن جلال بك سألني فتوقفت:

– ماذا يشغل بالك؟

– لاشيء...

ماذا أقول له؟ هل أقول له ما يشغل بالي فعلا. وهل سيهتم هذا الثور لذلك؟. أنقذتني الست عديلة وابنتها سهام. الآنسة الصغيرة تشتكي بأن الثوب الذي أحضره لها من باريس واسع عليها. كادت تبكي المسكينة. ماذا... هل يريد والدها أن تتبهدل أمام الناس؟ حسنا... حسنا. حين يأتي تمام فلتنزل إلى السوق وتشتري الثوب الذي يعجبها. عشرة آلاف ليرة تكفي. جلال بك أنهى المشكلة ودفع عشرة آلاف ليرة، تركتنا الست عديلة وابنتها. استدار جلال بك إليّ ووجهه مفعم بتعابير الحب والحنو على أولاده وزوجته. قال وكأنه يجيب على سؤاله بالذات:

– طبعا... إن بالك مشغول لأنه يمكن أن يتوقف تمويل متطلبات هذه المصانع من المواد والقطع بسبب عدم توفر القطع النادر، فيؤدي ذلك إلى تجميد أموالك... هذا الكلام معقول سوف أعرض عليك مشروعا آخر. ما رأيك لو قمنا بتأسيس شركة بناء ضخمة مهمتها بناء الشقق الفخمة. الشقة الواحدة بثلاثة ملايين ليرة. الأرباح عالية. القرش بثلاثة قروش. التهرب من الضرائب ممكن. نستطيع أن نتوسع بشراء الأراضي القابلة للبناء، ثم نقوم ببيعها كأراض أيضا كي لا نوسخ أيادينا. أسعار الأراضي في ارتفاع مستمر. الأرباح مضمونة أكثر من عملية بنائها... وبذلك تبقى أيادينا نظيفة.

هززت رأسي. دخنت حتى الآن كمية هائلة من السجائر. أحسست بطعم المرارة في فمي وبحرارة في رأسي. استمر الرجل وكأنه مذياع:

– ما رأيك في إقامة مصنع ما، نستطيع بناء عليه إدخال مواد أولية لا بأس بها وبيعها بالسوق السوداء. أم أنك تفضل العمل في تجارة الخيط.؟ لماذا أنت صامت؟... أم أنك تحب المضاربات. سوق العملة الأجنبية لا بأس به. أرباح مضمونة مائة بالمائة " لعنت في ذهني رقم المائة "... آه... وجدتها...

– ماذا؟

– المشروع المناسب لك، نستطيع أن نقيم مشروعا سياحيا ضخما. فندق خمس نجوم ومطاعم وبار وغيره... نستطيع أن نحصل على قرض ضخم من وزارة السياحة. الأرباح مضمونة ألف بالمائة. إيه... ما رأيك؟ لماذا أنت صامت؟... لماذا احمر وجهك هكذا، كنت أحسبك مريضا بسبب اصفراره. الحمد لله على العافية. أنت لا بأس عليك، ولكن عينيك حمراوان. اسمع يا أستاذ عبد الله، إن كانت صحتك ليست على ما يرام تستطيع أن تسلمني أموالك لقاء أرباح مقطوعة نتفق عليها دون أن تتعب ذهنك، لماذا عليك أن تفكر في الأعمال والمشاريع وأنت في هذه السن؟. لقد عرفت أنك أصبحت في الستين، أنت خبير بالسوق الأجنبية ولكنك غشيم هنا. يجب عليك أن تعترف بذلك بروح رياضية. أنا أعرف منك بهذا البلد. إنه بقرة حلوب.

الأيدي العاملة رخيصة والضرائب متخلفة والأسعار نحددها نحن. نستطيع التلاعب على التموين دون جهد. اسمع من أخيك جلال وسلم أمرك لي. قل لي فقط مقدار المبلغ الذي ستوظفه وأنا أقوم بكل شيء. مليون دولار... مليونان ثلاثة؟ قل لي أرجوك. أما إن كانت حنجرتك تؤلمك فتستطيع أن تشير لي بأصابعك... هكذا... افعل هكذا وتوكل على الله!. لماذا أنت صامت !... لماذا ترتجف؟ إننا في شهر آب يا أستاذ عبد الله... أم أنك تريد أن تؤسس بيتا في مدينتنا وتتزوج... حسنا تستطيع أن تعتمد علي في هذا الأمر أيضا. لقد تحدثنا أنا وعديلة. ابنتي إلهام تناسبك، سألتها بنفسي قالت بخجل إنها لا تمانع رغم فارق السن. بصراحة إن فارق السن لا يهمنا، المهم هو ابن الحلال الذي يستطيع أن يؤمن مستقبل البنت، وأنت ميسور والحمد لله... أربعون سنة ليست بالفارق الكبير. يكفي أن تهمس لي برغبتك همسا. لا يجب أن تخجل. اليوم سنعلن خطوبة ابنتنا وئام، نستطيع أن نعلن أيضا عن خطوبتك على إلهام. عصفوران بحجر واحد. انزل فورا إلى السوق لتشتر لها شيئا لتقدمه لها هذا المساء... ذهب، ألماس، لؤلؤ... الذي تريده... الذي تريده... هيا... قل شيئا! ماذا بك... ماذا بك؟...

نهضت... لا أعرف ما جرى لي، لا أعرف. صرخت خوان فارتعد الرجل، انكمش في مقعده، شاهدته يتطلع حوله. من هو خوان؟ اصفر لونه. مددت يدي وقررت خنقه. أمسكت بعنقه لأخرج روحه. كل ما أعرفه أنني سمعت ولاويل الست عديلة وبناتها، راح عصام يطبق عليّ مبادئ الكاراتيه، وهشام يشدني بعيدا عن أبيه. أفلت جلال بك من يدي في اللحظة الأخيرة. سجد على الأرض وهو يشهق ويسعل. أزرق لونه وجحظت عيناه. سمعت من يقول إنني مجنون. دفعتهم عنى واتجهت نحو باب الفيلا الرئيسي الذي يفتح بالتحكم عن بعد. جمعت أغراضي التي قذفوا بها إلى الرصيف. كانوا يهزون قبضاتهم باتجاهي من خلف الباب الإلكتروني. سمعت شتائمهم بشكل واضح. شتموا أمي وعائلتي والأرجنتين التي جئت منها. شاهدت إلهام تبرز لسانها وتمد إلي إصبعها الوسطى. قبل قليل كانوا سيزوجوني بها هذه الصفيقة. وقفت أتفرج عليهم. دمي يغلي ويفور منهم. لعنة الله على آبائهم. أنظر كيف يتحركون ويسبون من خلف أسياخ الباب الحديدي. عصام يقوم بحركات الكاراتيه وكأنه يوجه إلي اللكمات والصفعات. كان يصدر أصوات الصفعات من فمه. قال هشام وهو يهز قبضته:

– اذهب إلى حيك البنقسلي أيها الحقير، أنت مجنون. ليس لك مكان بيننا. نحن نتبرأ منك ليوم القيامة، سوف نتبنى كلبا عوضا عن قرابتك.

قال أيضا كلاما بذيئا لا يصح ذكره هنا. شيئا عن الأم والأخت والمؤخرة. أما الست عديلة فقد كانت تبصق وهي تمد إصبعين باتجاهي:

– سوف أملص عينيك. سوف أملص عينيك!

وقفت طويلا أتفرج عليهم. كانوا مثل القرود في حديقة الحيوان. وقف أيضا آخرون. استفسر بعضهم عن الأمر، راحت إلهام تشرح الموضوع للمارين:

– هذا الرجل قاتل. أدخلناه بيتنا فحاول خنق والدي.

استدار الجمهور إلي وسألني بعضهم:

– هل هذا صحيح يا رجل؟

قلت لهم وأنا أشعل سيجارة كي أهدئ نفسي:

– نعم، لأنه يستحق ذلك. لقد خنقني فحاولت خنقه.

– كذاب... كذاب... (صاحت الست عديلة) زوجي مسكين لا يستطيع لمس قطة. كنتما تتحدثان فإذ بك تهجم عليه لتخنقه. ماذا فعل بك آ...؟ هل هذا جزاء من يفعل معروفا في هذا البلد؟

استدار إلي الجمهور ليسمع ردي. أعجبتني طريقة الحوار واستماع الجمهور. رفعت يدي إلى الأعلى وقلت:

– إن زوجها مسؤول عن كل ما نراه في البلد. لقد باعها وخرّب اقتصادها. إنه سمسار لستين شركة أجنبية منها الأمريكية والإنكليزية. إنه مسؤول عن إفلاس البلد في حين أن الأمريكيين يحشدون قواتهم على حدودنا. لقد ربح هذا الرجل أربعمائة ألف دولار لقاء السمسرة التي قام بها من أجل بناء مصنع للزجاج في البلد. أنا أريد أن أسأل ألا يستحق الخنق؟

صرخ بعض الرجال وصفر آخرون مستغربين الأرقام التي قلتها:

– نعم، إنه يستحق!

– كلا، وما علاقتك أنت فالله يرزقه؟

– دعونا نسأل الطرف الآخر عن صحة هذا الأمر.

– وهل مات الرجل؟ ما دام لم يمت فلماذا كل هذا الضجيج؟

– اسمعوا، أنا أعتقد أن علينا استدعاء البوليس للقبض على الإثنين.

أسكتّهم بحركة من ذراعي وقلت لهم:

– ماذا... وهل تضعونني في صفه؟. ماذا فعلت أنا. كل ما فعلته هو أنني فقدت عقلي عندما عرفت كل ما يفعله الرجل صاحب الفيلا.

– وماذا فعل؟ قل لنا ماذا فعل؟!

- إن هذا الرجل وشركاءه مسؤولون عن الغلاء وفقدان المواد والتهريب وتدني قيمة النقد، وفقدان النقد الأجنبي. إنهم مسؤولون عن فشل الخطط الاقتصادية. لقد سحبوا العظام من الجسد فهل يستطيع أن يقف بلحمه فقط؟

صاح الجميع.. لا !

- إن بلدنا في خطر. إننا نتعرض لغزو الأبيض، هذا السرطان القادم إلينا ليبيدنا ويهدم بيوتنا ويدمر ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. اسألوني أنا، فأنا أعرف هذه السرطانات جيدا. إنها تغزو الجسد. إنها تسعى إلى إبادتنا، في حين يسرح هذا الرجل الذي اسمه جلال بك وشركاؤه في بلادنا ويمرحون. إنهم يبيعون كل شيء ويتاجرون بكل شيء. لقد ساعدوا على دمار ثقافتنا وتقاليدنا. لم يعد شعبنا يغني، لم يعد يقرأ ويحكي الحكايات. لم يعد يحفظ الشعر ويتغنى به... إلى ماذا جعلوا الشعب؟ انظروا، لقد حوّلونا إلى حيوانات تأكل بعضها بعضا كي تسمن أكثر. الكبير يأكل الصغير. القوي يهلك الضعيف. لقد أصبح الوطن دون مناعة. أصبح بلا مناعة داخلية. إنني أشعر بالخوف يا ناس. السرطان يترصد بنا في الخارج وهاهو جلال بك ينخرنا من الداخل. تأملوا إذا بحالنا! كل ما فعلته أنني حاولت خنق هذا الرجل الأبيض الكريه. وللأسف لم يمت بين يدي.

صمت الجميع. كانوا يفكرون على ما يبدو. كانوا يقلبون الموضوع في أذهانهم. جلست على حقيبتي أنتظر. أحسست بقوة هائلة تسري في جسدي، وبضغطي طبيعيا. كيف حدث هذا. زال الألم من مفاصلي. هل يمكن أن يزول مرضي بعد إلقاء خطاب سياسي؟ ماذا تقول في هذا يا خوان ؟ إني أحس نفسي بالأربعين. صغرت عشرين عاما. آه يا خوان كم أنت راسخ في نفسي. راسخ كما كنت كذلك في ذلك القبو في بوينس آيرس بعد أن أخذوني من بيتي فجرا. هل أخطأت يا خوان، هل أصبت؟ لماذا لا تتكلم؟ لماذا يا خوان؟...

تطلعت حولي. كان الناس يغادرون في كل الاتجاهات. سمعوا وفهموا. لم يفعلوا شيئا، كانوا يهزون رؤوسهم صامتين. رحل الناس وأنا أراهم يقلبون الأمر في رؤوسهم. ملامحهم توحي بذلك. متى يقتنعون؟

تطلعت إلى باب الفيلا. كانت عائلة فرح مازالت تبصق وتسب وتشوبر بأيديها. نهضت عن الحقيبة ثم التقطتها. ابتعدت عن سور فيلا آل فرح وأنا أسمع شتائمهم. أوقفت تاكسيا وطلبت من السائق أن يأخذني إلى حي البنقسلي. قاد السيارة بعض الوقت ثم توقف فجأة. أطفأ الراديو الذي كان يبث أغنية " يا الله يا باسم غنّي لي شوية " ثم استدار إلي. كان السائق في الستين أيضا. حك قذاله وسألني:

- هل قلت حي البنقسلي؟

- نعم يا سيد...

- دعني أتذكر. لم أسمع باسم الحي منذ زمن بعيد.

صمتَ وكلي رجاء أن يتذكر. إنه عجوز طيب. تمتم عدة مرات باسم البنقسلي دون جدوى. هز رأسه يمينا وشمالا كأنه قد عجز. نزل من السيارة وراح يسأل المارة عن الحي. الجميع اعتذروا. أوقف سيارة أجرة وسأل زميله عن الحي. طال الحديث بينهما فتأملت خيرا. شاهدتهما يشيران إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة. عاد سائق سيارتي مبتسما. انشرح صدري وابتسمت له. جلس وقال لي منتصرا:

– لقد عرفته.

قلت له الحمد لله والله يعطيه العافية. سألني وهو ينطلق:

– يبدو على الأخ أنه غريب عن المدينة ومعلوماته عتيقة.

– بالضبط..

قال وهو يبدي رقّة تناسب سائق سيارة أجرة عجوز:

– لقد حيرتني في بادئ الأمر. حسبت نفسي قد خرفت. لقد استبدلوا اسم هذا الحي باسم آخر منذ زمن بعيد.

– ماذا أصبح ؟

– حي التجارة !

قلت له من بين أسناني:

– لعنة الله عليهم أجمعين.

– من ؟

– لماذا استبدلوا اسما جيدا يذكرك بماض عزيز. كيف يمكنهم أن يلغوا اسما أصيلا باسم حقير كهذا؟

– لا أعرف يا سيد، ولكنني أعرف أنهم يبدلون كل شيء.

سألت مغتاظا:

– يستبدلون كل شيء بالتجارة أيضا!

هز رأسه ولم يجب. سألت وأنا أقدم له سيجارة فيرفضها:

– منذ متى وأنت تسوق سيارة أجرة؟

– منذ خمس سنوات.

– وماذا كنت تعمل؟

– كنت أنسج شرائط الخرق إلى بسط.

– هذا عمل جيد وأصيل، لماذا تركت هذه الحرفة ؟

– لم تعد رائجة في البلد. لم يعد أحد يمد في بيته بساطا من خرق.

– لماذا؟

– إنهم يفرشون البيوت بالموكيت وباللينوليوم.

هززت رأسي وأنا أسأله:

– مثل حي التجارة؟

– نعم... مثل حي التجارة.

أوقف السيارة وقال:

– إنه حي التجارة. إلى أين تريد أن أقودك بالضبط؟

إلى أين؟ لا أعرف. طلبت منه أن ينزلني في منتصف الحي وأن ينتظرني في الظل، فأنا لن أحمل حقيبتي معي. وافق الرجل وتمنى لي التوفيق. شكرته ونزلت من السيارة. وقفت مبهورا ومسطولا في الشارع العريض ذي الاتجاهين. عصرت مخي وركزت ذهني. هل تتذكر الشارع يا عبد الله؟... لا والله العظيم!.. أوتوستراد باتجاهين من الإسفلت وفي المنتصف أشجار ذابلة كأنها أغصان مدقوقة في الأرض. لم أجد أطفالا يلعبون ولا سحارات البندورة والبطيخ. كيف إذن سأتعرف على الشارع؟ كيف يمكن أن يتحول طريق عرضه عشرة أمتار، مرصوف بأحجار البازلت السوداء، تسير عليه الحناتير التي تطقطق أحصنتها وبغالها بحوافرها على الحجارة بصوت عذب وجميل، إلى أوتوستراد عرضه ستون مترا؟ إنها آلات "كا تربيلار "

وقفت في الظل وأعملت فكري. أحسست بالدوار فأقلعت عن التفكير. تركت اللاوعي يعمل. بعد لحظات جاءت الفكرة دون جهد. ابحث يا عبد الله عن أحد المساجد القديمة، ففي بلادنا لا يهدمونها لحسن الحظ. فعلا كانت فكرة جيدة. عقلي عاد إلى عمله كما كان قبل مرضي، وقبل نزولي مع البوليس السري إلى ذلك القبو الرطب المفعم برائحة الدم. مشيت إلى الأمام، عندما اكتشفوا مرضي وشخصوه، سألوا السنيور كومب عن عدد الأيام الباقية لي، فأجابهم أنني سأعيش مائة يوم بعقل مشوش. ثم أخبروني أن بعض الاستقلابات الذهنية سود تحدث في عقلي. ولكني أشعر أنني على ما يرام، مازلت أسأل نفسي ماذا حدث. هل أصبح سرطاني

تافها أمام السرطان الهائل والشامل الذي أراه؟ لا أعلم، ربما كان ذلك صحيحا، ربما كان خطأً. قد يكون السرطان قد ضرب الجميع بمن فيهم أنا نفسي. قد يكون ضرب الأمة وأفرادها. المهم الآن أنني أشعر بقوتي قد عادت. في الغد سأفكر كيف حصل ذلك... ثم إنني أخاف أن تكون الصحوة الأخيرة قبل الموت، ذلك الموت الذي وعدوني أنه لن يأتي قبل مائة يوم. أي أنه مازال لديّ الوقت الكافي. لا أعرف... اخلع عن ذهنك يا عبد الله أفكار الموت والمائة يوم وسرطان الأمة!. المهم الآن أن تجد البيت ذا الطاقة. المهم أن تجد بيت أميرة. تصور يا عبد الله أن أميرة تنتظرك في بيتها كل هذه السنين. يا إلهي، خفق قلبي وتفصد العرق على جبيني. لماذا لم يعد يأتي خوان؟ كم أحتاجه!...

وقفت من جديد. إلى أين أنا ذاهب وسط هذا السيل الهائل من السيارات والأبنية البيضاء العالية. هذا الحي لا يمت بصلة إلى البنقسلي. أخرجت سيجارة وأشعلتها وجعلت أنفث دخانها باحثا عن أحد مساجد حي البنقسلي. فجأة هوى شيء من الطابق الرابع. سقط على الأرض بدوي شديد وتناثر على الإسفلت. اقتربت منه وتفحصته. اكتشفت أنه كيس زبالة. ابتعدت مسرعا لكيلا يسقط شيء آخر على رأسي. سرت خمسين مترا. قرأت إعلانا كبيرا كتب بمادة الفوسفور عن آليات الكاتربيلار: " كاتربيلار، تؤمن لك السعادة والبسمة" إلى جانبه إعلان آخر كتب بخط اليد " يوجد لدينا جميع أنواع الأدوات الكهربائية المهرّبة"، مع سهم يشير إلى المحل. وقفت أتمعن ببلاغة الإعلان، وبينما أنا كذلك حدث تصادم بين سيارتين أنيقتين فتحولتا إلى كتلة من الحديد واللحم والدم. ركض الناس للتفرج. تعرقل السير وأطلقت الزمامير. ابتعدت عن الحادث وعن الزمامير. نظرت إلى يميني. يا إلهي... وجدت مسجد زكريا ومزاره. عرفته فورا من مئذنته الصغيرة والجميلة والصامدة. انتابتني فرحة عظيمة. ها أنا ذا أرسم مخططا كاملا للحي في ذهني. أستطيع الآن أن أسير وفقه لأصل إلى ساحة الشيخ التي توصل إلى بيتنا. سرت باتجاه الشمال. هنا كانت الحوانيت ذات الأبواب الخشبية، وهناك كان مخفر للفرنسيين قائما وعلى بعد أمتار كان بناء كتّاب الشيخ "علي المصروع ". أما الخراق الذي كان يجاور الحمام التي لم تعد موجودة فقد أصبح أعرضا ومسفلتا. مشيت في الخراق إلى آخره. لم يعد خراقا بل شارعا عاديا. شارعا محاطا بأبنية حديثة، عوضا عن أكشاك بيوت آل السكر والأفندي والقربي. لم يعد خراقا هادئا تتردد فيه وقع أقدامي، بل شارعا تلعلع فيه أغاني "توم جونس" و"سميرة توفيق" و " شامي كابور".

مرقت من بين السيارات المتوقفة بصعوبة. عرفوا أين يضعون سياراتهم. عند آخر سيارة سمحت لامرأة تدفع عربة أطفال بالمرور قبلي فتطلعت إلي بعند. كان الطفل يجعر بوقاحة وهو ممسك بقنينة الرضاعة. ما إن مرقت المرأة والطفل حتى سقط كيس زبالة آخر على ظهر إحدى السيارات.

خرجت من الشارع إلى ساحة الشيخ. سمعت أصوات موتورات تهز الأرض. ساحة الشيخ أيضا. أصبحت البيوت التي تحيط بها ا أبنية بيضاء متشابهة، كأنها صنعت مسبقة الصنع. شيء آخر يعطي للصورة علامة مميزة: غسيل منشور، على كل البلاكين وبكل الألوان. الآن إن أنا انعطفت إلى اليسار سأصل إلى حارتي. وقفت مترددا. هل أنعطف؟. ماذا سأرى؟ هل ستعود الأيام الحلوة ؟ هل سأجد عبد الله المنحوس يلعب في الحارة مع رفاقه؟ بيتنا وبيت أميرة الملاصق له؟ خفق قلبي وأحسست برجفات في ساقي وساعدي. أحسست بدوار هائل يشل تفكيري. أنا مريض، أنا أعرف ذلك، لا أحتمل الانتظار. استندت إلى الجدار

وانعطفت. ما هذا؟ إنها ليست حارتنا. أبنية بيضاء حديثة على الجانبين. بيتنا وبيت أميرة أصبحا صفا من الحجارة البيض. أسندت ظهري إلى أحد أعمدة البناية المقابلة وجعلت أتفحص الأبنية. إنها من خمسة طوابق ودكاكين في الأسفل (هذه ملاحظة جديدة. لقد استنتجت أن الطابق الأرضي لكل الأبنية الحديثة هي دكاكين للبيع والشراء. كانت الدكاكين في الماضي محصورة في الأسواق، أما الآن فهي في كل مكان. لا أعرف من أوحى بذلك، أي قليل ذوق؟). اللون الأبيض هو المشترك بين كل الأبنية الحديثة. اختفت إلى الأبد بيوتنا الحمراء. الأبنية البيضاء غزت بيوتنا الحمراء. آه يا خوان كم أنا مريض! كيف أصبحت؟ كيف أصبح بيتنا وبيت أميرة؟ لم أتوقع ذلك، كنت أحسب أنني سأجد بيتنا كما كان. كم كنت أود العودة للعيش فيه. لدس رأسي في طاقته. للبحث عن أميرة... ماذا حصل لها؟ يا أميرة مازلت أتذكرك. ذلك الشعور الذي خلقتِهِ في ذاكرتي مازال يتملكني. هل ضعت أخيرا؟ من أنا، أين سأذهب ! لقد انقلعت جذورك يا عبد الله، يا شجرة الدردار السوري... آه.. !

أحسست بالإرهاق وبتعب شديد. خفق قلبي بشدة وأصبحت أشعر به يتوثب. رحت أتعرق وضاق صدري وطقت مفاصلي. علَت أصوات الموتورات وكأنها تبث هديرها في أذنيّ. أسكتوا هذه الموتورات أرجوكم.. ماذا يحدث؟... لا يا عم. إنها "الكاتر بيلر" تهدم بيتا عتيقا.

أغمضت عينيّ مرغما. حاولت فتحهما. وعوضا عن ذلك ارتطم رأسي بالإسفلت.

ظهر طبيب المستشفى الملكي ببوينس آيرس بصدريته البيضاء، وفي يده عصا طويلة. وقف أمام شاشة جهاز الكومبيوتر وراح يشير بالعصا إلى الكلمات ويقرأ: " تغزو الكريات البيض الفتية، بدون حدود وبشكل عشوائي، نخاع العظام والأعضاء الأخرى وتتجمع داخل الدم فتسبب فقرا شديدا بالدم يعود إلى عدم كفاية نخاع العظام وتخرّب الكريات الحمر".

– ماذا يقول هذا الرجل؟ إنه يبتبت بلغة غريبة.

" ما أن يستشري المرض حتى يتسارع النزيف: نزيف تحت الجلد ونزيف الأنف واللثة ونزيف هضمي بسبب نقص في الصفائح الدموية".

– احملوه... احملوه يا إخوان. إنه ينزف. استند إلى العمود دقيقة ثم سد أذنيه وسقط. هيا!. احملوه معي إلى داخل الدكان، إنه ليس ثقيلا.

"أسباب الوفاة: النزيف المستمر من الداخل، وهجوم الجراثيم من الخارج".

– هل مات الرجل؟

– لا...

– ماذا حدث له؟

- سقط على الأرض وراح يهذي بلغة أجنبية.

- قال شيئا بالعربية أيضا.

- ماذا قال؟

- جلال بك. السرطان، كانتر بيلار... ثم قال: أتفوه

- هل فهمت شيئا؟ أنا لم أفهم شيئا.

- هيا ضعوه هنا!

- ماذا ستفعل به، هل نخبر الإسعاف؟

- دقيقة، سنجعله يشم "ماء الزهر"

- لا... بل قربوا من أنفه عود ثقاب مشتعل.

- أنا أقترح أن تخزوه بإبرة.

- انظروا، وجهه أصفر كالبقس. أرسلوا وراء أحد الأطباء. قد يموت الرجل في دكاني.

- بل هيا نحمله إلى المستشفى، إنه قريب من هنا.

- هيا. هيا...

حملني الشباب. ها قد حملت أخيرا يا عبد الله. حملوك كما يحملون الميت إلى المدفن. حملوك رغم أنك لست ميتا، وها هم أبناء وطنك يسيرون خلفك، كما سيسيرون خلف نعشك. كل من صادفهم يسألهم ما الخبر ثم يسير خلفك. آخرون طلبوا المساعدة في حملك. إنهم قلقون عليك، يركضون بك خوفا عليك. يريدون إنقاذك. وما أن اقتربوا من المستشفى حتى صاح أحدهم: إنني أعرفه لقد أحضرته إلى هنا بسيارتي، وطلب مني أن أنتظره... ساعدهم الآخر على حملي إلى الداخل. قال لأحد العاملين في المستشفى العمالي إن لي حقيبتين في سيارته. يا له من إنسان شريف هذا العجوز الذي طلّق حرفة البسط إلى قيادة سيارات الأجرة. وعند أحد الأبواب أخذوني ومنعوا الناس من الدخول. قالوا لهم لا بأس، إلى هنا وكفى، إنه دورنا الآن. دعوا لي بالشفاء ورحلوا. أردت أن أتطلع إليهم لأعرف وجوههم دون جدوى. فأنا أحس بكل شيء، ولكنني لا أستطيع تحريك أضلاعي. ماذا حدث لي؟ إنني أموت على ما أظن. حسنا فلأمت الآن. لم أعد أستطيع الانتظار ريثما تنتهي المائة يوم. أنا لا أريد الانتظار. ماذا سيفيدني ذلك؟ حسبت أن السرطان يكمن في دمي وإذ به في كل مكان. حسبت أنني عائد إلى الرحم كي أتطهر وإذ بي أرى الرحم يحتاج إلى التطهر.

وضعوني على أحد الأسرة وسمعت همهمات. أخذوا عينات من دمي للتحليل. فحصوني جيدا. حملوني مرة أخرى إلى غرفة التصوير الشعاعي. أعادوني من جديد إلى الغرفة. سمعت همهمات من جديد. أربعة أو خمسة أشخاص يسألون عن النتيجة. ما به... إن شاء الله... يا لطيف! إنهم زملائي في الغرفة. أناس حميمون ذوو وجوه متلهفة، يتطلعون إلي بأعين غائرة. أمامي على الجدار علقت لوحة كتب عليها: " الطبقة العاملة تنتج بيد وتحمل السلاح بيد أخرى" !لا بأس عليك يا عبد الله... ها قد وجدت أخيرا مكانا حميما كي تموت فيه. صحيح أنني لم أفكر به ولم أقصد البحث عنه، ولكن المصادفات السعيدة هي التي ساقتني إليه. لو لم أذهب إلى البنقسلي لما وصلت إلى هنا. كان علي أن أذهب منذ وصولي إلى المدينة إلى حي البنقسلي، عوضا عن ذهابي إلى بيت الست عديلة وزوجها الحوت. (صحيح أن الحوت يبتلع كل شيء أيضا، إلا أنه ألطف من جلال بك) ابتسمت. كيف خطر في بالي أن أشبه جلال بك بالحوت؟ حينما ابتسمت شاهدت زملائي في الغرفة. اقتربوا مني وأحاطوا بسريري. حتى هنا يلبسونهم منامات زرق. أحاطوا بي وجعلوا يمسدونني بأيديهم الخشنة. كانوا يبتسمون هم أيضا. وجوههم متطاولة، أسنانهم صفر، عيونهم غائرة، ذقونهم كثة. أحسست بتنمّل في أطرافي ورأسي. أغمضت عيني من فرط التأثر. شعرت بالحاجة إلى النوم، وأحسست بسكينة غير عادية، كما كنت أشعر عندما كانت أمي تمسّد لي رأسي كي تزيل عني وجع الرأس.

– خوان... خوان يا خوان، أين أنت؟ تعال انظر كم أنا سعيد. تعال انظر، أين أنا؟

لا جواب... خوان غائب.

– خوان يا عزيزي، ألق نظرة فقط.

خيّم سكون طويل... أين خوان؟

– خوان مات... رجلي الأخير مات... لقد ثقبوا رأسه بثلاثين رصاصة، رغم أن واحدة كانت كافية.

– من أنت؟ يبدو لي أنني أعرفك.

– أنا ووفوكا، مسيح البايوتيه الأحمر.

– ماذا تريد يا سيدي؟ !

– جئت أحذرك.

– من ماذا؟

– اليانكي الأبيض قادم إلى بركم. في الماضي جاء إلى برنا وأباد شعبي، الآن جاء دوركم...

– وماذا عليّ أن أفعل؟

– عليك أن ترقص!

– لا أستطيع يا أبتِ، فأنا مريض. أحمل الأبيض في دمي. سأموت في نهاية المائة يوم.

– ليس بك شيء. مختبر المستشفى العمالي حلل دمك وتأكد من سلامتك. دمك أحمر قان مثل دمي. انتهى المرض، زال. لقد تطهرت نهائيا يا عبد الله.

– يا إلهي... هل هذا صحيح؟!

– نعم. ستتأكد عندما تستيقظ!

– شكرا لك أيها المسيح الأحمر، ولكن هل يكفي أن أرقص بمفردي؟ أنت تعلم ما جرى للناس.

– سوف يرقص معك رفاقك في المستشفى العمالي. سوف يرقص أيضا أصدقاؤك الأدباء والجنود والفلسطينيون واللبنانيون والساندينيون... و... وكل الحمر في العالم.

– حسنا... حسنا يا ووفوكا. هل لديك شيء آخر تقوله؟

– نعم... انتبه جيدا، يجب ألا يصبح شعبكم مثل شعبي، ألا يصير إلى ما صار إليه.

غاب ووفوكا مسيح البايوتيه الأحمر. غاب ففتحت عيني. كان زملائي في الغرفة متجمعين حول جهاز ترانزيستور صغير يستمعون إلى نشرة الأنباء:

" هم يعلنون أننا إرهابيون، الإسرائيليون يحشدون القوات على حدودنا. هم يريدون تأديبنا ويحشدون بوارجهم وحاملات طائراتهم مقابل مياهنا. البلد سيحارب. الوطن في خطر. إننا نقول لهؤلاء: إن وطننا ليس لقمة سهلة، وشن الحرب علينا ليس بنزهة"

اللعنة على الاستعمار وإسرائيل. (ابتسم الجميع وجمعوا قبضاتهم) الفلسطينيون يفجرون، اللبنانيون يقصفون... و...).

شاهدوني أنظر إليهم. أطفؤوا جهاز الراديو ونهضوا. اقتربوا مني ببطء. انتشروا حولي. نهضت بسهولة ووقفت بجانب سريري. رفعت يدي إلى الأعلى وهمست لهم:

– هل نرقص؟

هزوا رؤوسهم. رحنا نرقص بأعصاب مشدودة حتى الصباح.

النهاية